تقديم إلى مقام إمام العصر والزمان المهدى المنتظر﴿عليه السّلام﴾

لنسأل الغرب

(الإرادة المقرونة بالحق)

إسماعيل شفيعي سروستاني

كَافَّةُ حُقُوق الطّبع وَ النَّشرِ وَ التَرجَمَةُ مَحفُوظَة لِلنَّاشِر

«موعود العصر(عج)»

لصاحبه

اسماعيل شفيعي سروستاني

ترجمة:

كاظم شماعيان

الطّبعَة الأولى

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.

ص ب ٨٣٤٧ ـ ١٤١٥٥

هاتف: ٨٨٩٤١٣٣٧ - ٠٢١ (٠٠٩٨)

٨٨٩٤١٢٣٥

فاكس: ٨٨٩٤١٤٠٢

الفهرس

تقديم..... ٧

«لنسأل الغرب» تذكير حول تاريخ المستقبل!..... ١١

ضرورة التفكير و تحديد الحالة..... ١٨

الحياة الغجرية، هدية الغرب للإنسان!..... ٢١

لقد كنا مرغمين علي التساؤل!..... ٣٥

بوابات العالم الدينى والعالم الغربى!..... ٤٠

نحن و الميثودولوجيا الغربية!..... ٤٤

الوَلاية و الوِلاية..... ٥٠

وِلاية الحق، ترحيب بتاريخ الغد..... ٥٥

الأدب الدينى فى الظل..... ٦١

السابقون و انفصال العوالم..... ٦٧

التناغم اللسانى مع الماضى، بحاجة إلى التساؤل!..... ٧٥

لغتنا العصرية!..... ٨٠

السؤال الأول؛ السؤال حول بداية الوجود و العالم الغربى..... ٩٠

السؤال من الإنسان..... ١٠٧

السؤال من الطبيعة! ١١٨
السؤال من العلم الحديث والعالم الغربي! ١٢٧
البيّنة الذهبية ١٤٢

تقديم

إن موضوع ومحتوى هذه المجموعة، هو السؤال من الغرب. إن هذا السؤال هو سؤال فلسفي أصلا، ويغطي نظريا ظروفا تاريخية خاصة، لا يمكن تجاوزها من دون هذا السؤال. إن سؤالا كهذا يخطر على البال في المنعطفات المهمة والتاريخية للأمم، والرد عليه لايقع على عاتق عوام الناس، وهو ليس من وظيفة وواجب العلماء وأرباب الخبرة وحتى السياسيين أيضا، بل أن المفكرين وأولي الألباب منهم، هم من يوجه إليهم هذا السؤال ـ شريطة أن تكون منزلتهم ورأيهم مصدر أثر ـ وأن الإجابة على هكذا أسئلة، توضح التوجهات الكبرى والنسبة القائمة بين كل شئ بما في ذلك الثقافة والحضارة و العلاقات الاجتماعية، و تقرر مصير قوم وأمة ما، و تظهر مسارهم في سلوك الطريق وتوضح كيفية الصيرورة و العيش في الحياة.

إن سر الحضور الفاعل أو المنفعل للأمم في هكذا ظروف حساسة، يكمن في صمت أو رد أصحاب الرؤية على التساؤلات الكبرى. ومن هنا، تتضح منزلة ومقام المعلمين الحقيقيين ودورهم، بحيث أنه في المنعطف المهم المتمثل في الحركة الدستورية (المشروطة)، أي بداية التعرف على الغرب وفي تلك الظروف التاريخية التي تمت تجربتها، تولى أناس مهمة الرد، لم يكونوا مؤهلين لذلك. وقد تولى

المثقفون الرد والإجابة من دون توفير أسباب العظمة وفقط بالإتكاء على مشاهداتهم وانطباعاتهم عن صور وظواهر الحياة الثقافية و الحضارية و الإنهماك في المجادلات و التعاملات السياسية والاجتماعية، ما تسببوا بانفعال وعجز كبيرين وجلبوا لأكثر من مائة وخمسين عاما، الحياة المنبهرة بالغرب لسكان هذا البلد الكبير. وحسب أهمية هذا السؤال الذي يتم تعريفه دائما لدى أهل الحكمة والسياسة، في ذيل الثقافة وكتابع لأهل الثقافة، الأمر الذي يشاهد نقيضه في عموم التجارب البشرية، أي أن رجالات السياسة هم الذين يقررون ويسيّرون مقدرات الأمم دائما وفي كل مكان ويستغنون عن أولي الألباب ليرسموا المسارات الفردية والجماعية للناس. و في هكذا ظروف، فان الإختلاء و العزلة، يشكلان المصير الحتمي لأولى الألباب.

إن التورط بالثقافة الأجنبية، في ظل تراجع الأساس النظري والأدب الديني للجماهير في وقت غلبة الفكر والثقافة الغربيين في البلدان الاسلامية واستمرار الحياة الثقافية المنفعلة والمعلقة لشعوب هذه الجغرافيا الشاسعة، مؤشر على الغفلة عن هذا السؤال الجاد. كما أن غياب الإهتمام في هذا الخصوص على مدى القرنين الماضيين، جعل الشرق يفتقد الى الجهوزية لمواجهة العدو الغربي الغادر.

وقد يرى البعض بان طرح هذا التساؤل جاء متأخرا وفي غير أوانه بعد مائة وخمسين عاما من التعرف على الغرب والإستئناس به، لاسيما وأن نجم الثقافة والحضارة الغربية آخذ الآن في الأفول، لكن يجب التذكير بان الشرق مايزال يرى أنه بحاجة إلى الغرب ويبحث عن حلم التكافؤ معه في التكنيك والتكنولوجيا، بحيث أدرج على جدول أعمال جميع دول الشرق، بسط الحداثة والعصرنة في إطار توسيع الهيكلية الاقتصادية والاجتماعية.

ويتطرق الكاتب في هذه المجموعة إلى ضرورة طرح السؤال ويسعى لتبيان موقع وموضوع السؤال، ويرى أن «ايران» الاسلامية والشيعية أكثر تأهيلا وجدارة من بين كافة سكان الشرق، لهذا الغرض، لأن سائر شعوب الشرق بما فيها الصين والهند واليابان تكبدت خسائر ثقافية جسيمة في المواجهة مع الغرب، لكنها وحسب ماضيها وجوهرها الثقافي، لاتتمتع بامكانية تجديد الحياة الثقافية. إن هذه الأمم تفتقد في النظام الفكري والنظري إلى التوجهات الجوهرية والجادة نحو المستقبل. إن عامة الثقافات والحضارات الاسيوية والشرقية المنسوخة والممسوخة، تلتزم الصمت إزاء بناء الصرح الثقافي وتنظيم التعاملات والعلاقات الفردية والجماعية، تأسيسا على البنى التحتية الفكرية والثقافية، وهذا حرّمها من القدرة على بناء تيار جاد ومنعطف تاريخي مهم.

إن إمعان النظر في منعطفين مهمين في هذه البلاد، أي المشروطة (الحركة الدستورية) و واقعة الثورة الاسلامية الكريمة، يذكرنا بفرصتين: الفرصة الأولى قد اهدرت بالكامل، حسب تبيان التاريخ، والفرصة الثانية، جعلت هذه البلاد تواجه خسائر لا تعوض على اثر الصراعات السياسية والاجتماعية المتتالية والأستعجال في إرساء المدنية الجديدة و ...، بحيث يخشى من خسارة الفرصة المهمة الثانية أيضا.

إن صياغة إستراتيجية الإنتظار المهمة لإعادة التأهيل الثقافي والمدني للوطن الاسلامي، حسب التعليمات الدينية، ضرورية بقدر ضرورة السؤال من الغرب بوصف ذلك حاجة مسبقة لاعتماد هذه الاستراتيجية.

إن هذا الكلام، يعني تجاوز الغرب الذي بني في الحقل النظري على المحورية الاستكبارية والأنانية، غير ممكن من دون إعتماد استراتجية نفي الذات في المقام

النظري. الإنطباع الظاهر تماما في الثقافة والفكر الولائي الشيعي وهذا البعد البارز، يميزه عن سائر الإنطباعات والثقافات والحضارات. إن الثقافة الولائية، قائمة على قطب ومحور ترك الذات، ومبنية على محوري ترك الذات والرجوع إلى التفكير بالحق.

إن إعادة تأهيل كل ما أدى ألى إنغماس فكر المسلمين وثقافتهم وحضارتهم في بحر من الإنفعال والإنتقائية النظرية، هو عمل صعب. لكن الإرادة المقرونة بالحق، قادرة على اجتذاب اللطف والرعاية الإلهية، وتقديمنا بوصفنا جماعة منتظرة حقا، كرائد جيش الجهاد، الأشخاص الذين يملكون على عتبة التاريخ الحديث، إسم موعود آخر الزمان والمهدي المنتظر في الساحات الفكرية والعملية و يجهزون و يهيئون القلب لورود رسول الإيمان والفلاح. إن شاء الله.

إسماعيل شفيعي سروستاني

صيف ٢٠٠٤

«لنسأل الغرب» تذكير حول تاريخ المستقبل!

وبعد المشروطة، فان منعطفنا المهم والتاريخي، تمثل في الثورة الاسلامية، الواقعة التي كانت تحمل في طياتها السؤال من الغرب و إنكار أساس علم وجوده.

وكان هذا السؤال مقدرا في الثورة الاسلامية، لانها إعترضت في الأساس والجوهر، على الإستغراب والإنبهار بالغرب وأدى هذا إلى أن ينعت الغربيون منذ السنوات الأولى للثورة، هذه النهضة بالحركة الإصولية.

إن نعت الثورة الاسلامية في ايران بالإصولية، كان مسبوقا في الغرب لاسيما في الولايات المتحدة. لذلك فانهم ولاسيما المفكرين وأصحاب الرأي منهم، كانوا يشيرون وقبلنا نحن، إلى القوة الكامنة في النهضة الاسلامية للشعب الايراني.

لقد كانت الثورة الاسلامية، تعترف بغيب العالم وعالم الغيب وتعترض على النظرة الظاهرية والسطحية إلى العالم ولا تعتبر الإنسان كائنا أحادي البنية ومرتبط بعقل المعاش والحواس الظاهرة، بل تعتبره مسافرا في الطريق، يمر من المنزل الظاهر ليكتشف باطن وحقيقة الوجود والكون. وهذه النظرة الأصولية فصلت النهضة الاسلامية ودعاتها عن الانسان الغربي و العالم الغربي و كانت تذكر بهذه النقطة:

إن قدر لهذه النهضة أن تظهر بشكل كامل، فانها سترسى «تاريخا حديثا» و «فكرا جديدا» و «ثقافة وحضارة قائمة على الإنطباع الدين عن العالم».

إن السؤال الجاد من الغرب، كان يجب أن يوضع في صدر المشروطة على جدول أعمال الحماة والحراس الثقافيين لهذه البلاد. إن ضرورة طرح هذا السؤال كانت بشكل بحيث أنه إن قرر سكان الشرق، التحول إلى النزعة الغربية التامة والكاملة في مختلف ميادين الحياة، فان الردود التي كانت ستحصل، كان بامكانها ان تمهد لهم السبيل للتحول إلى الطريقة والنزعة الغربية، لكن بما أن هذا لم يحدث، فان سكان البلدان الاسلامية، لم يصبحوا غربيين ولم يبقوا شرقيين.

ولم يكن مهما، العرض والطول الجغرافي للغرب أو الشرق، بل المهم كان الإنتماء والجذور وجوهر الإنطباع والنظرة الخاصة والمتفاوتة إلى العالم، ذلك الشئ الذي كان يفصل الغرب عن الشرق، الواقعة التي أدت إلى ألا يكون الشرق قائما بمفهومه الحقيقي، لانه اليوم وبرغم الإقامة والسكن في شرق العالم والتكلم بلغة الشرقيين، فان الجميع أضحوا يعيشون في كنف الثقافة والحضارة الغربية، و يتكلمون بلغة الغرب.[١]

وفي مستهل تعرف سكان الشرق على الغرب، كانت صورة اللغة أي ألفاظها وأصواتها وعباراتها مختلفة كما سيرتها، أي حقيقة وجوهر علم الوجود الشرقي، وكان يضفي معنى ومغزى مختلفا وخاصا على الألفاظ والعبارات. وفي هذا الخضم، ساهمت عوامل مختلفة في الإستئناس بالثقافة الجديدة، بحيث أن الإنطباع العام لسكان الشرق عن العالم والانسان، تغير في ذيل التاريخ الغربي وأصبحت الصورة اللفظية

١. القصد هو حقيقة اللغة لا صورتها.

للغة، تعكس معنى ومغزى الثقافة الغربية، لكنه لم تتيسر لسكان الشرق، إمكانية الدخول والسكن في العالم الغربي.

إن آلاف المفردات والمصطلحات الرائجة اليوم في الحوارات العامة والأعمال المكتوبة والفنية لهذه البلاد، تنشر اليوم بيننا الشحنة المعنائية والأدبية الغربية، وتسحب من جغرافيا أدبنا وأدبياتنا المفاهيم السابقة، بحيث أن أيا من المفردات والمصطلحات المهمة بما فيها التربية والنمو والفكر والعقل والعلم واللغة والفن والانسانية والأدب والكمال والعالم والشعب والقلب وما شابهها، لا تحمل المعانى والمفاهيم التي كانت سائدة ومعتمدة لدى مفكري وشعراء حقل الثقافة والحضارة الشرقية والإسلامية بمن فيهم مولوي وسعدي وحافظ وجامي وسنائي وعلماء وعرفاء حقل الدين والمعرفة الدينية، بل أنها وطنت مجمل إنطباعات الانسان الغربي ما بعد عصر النهضة والتي نشأت في العالم الغربي، بحيث قلما نجد أحدا منا يقف على تعريف وانطباع المتقدمين منا عن العقل والعلم والفن و... . بعبارة أخرى فان هذه المفردات والمصطلحات تحولت فحسب إلى أداة لنقل صورة عن مفاهيم الحقل الثقافي والفكر الغربي، وأصبحت آذاننا جاهزة للإصغاء إلى هذه المفاهيم الجديدة. وهذا جلب كارثة أكثر هولا، ألا وهي تقديم تفسير وترجمة حديثة عن أعمال مفاخر هذه الديار الشرقية والدينية. بعبارة أخرى، تحولت هذه الأعمال إلى أعمال دنيوية وغربية وعلمانية وتفسر العالم والانسان كما يفسرها الإنسان العصري.

إن هذا التحريف الفظيع وعلمنة المصادر الثقافية، أتى على لب وجوهر الثقافة الشرقية، وحول القشرة المتبقية منها إلى أداة للتفاخر والتبجح الجاهل. لذلك، فاننا أصبحنا لا نعيش في كنف الثقافة والحضارة الشرقية والايرانية والاسلامية، بل

نسير في جغرافيا ايران القديمة كانسان غربي. إن هذه الواقعة، طرأت على جميع الأمم والشعوب، ولا يمكن اليوم العثور على بقعة من العالم بقيت بمأمن ومنأى عن هذه الغارة والتحول.

وكما قلنا، فان السؤال من الغرب، كان واجبا يثقل كاهل حماة وحراس حريم الثقافة الإيرانية، لكن ماذا يمكن فعله عندما، تغتصب جماعة من المثقفين بولع الموقع السامي لأهل الرؤية والفكر وتحل محلهم. وحينها وبولع ومن دون أي تساؤل، تذهب لإستقبال الغرب وتجر معها عوام الناس.

ومنذ تلك السنوات وإلى يومنا هذا، فان الحديث عن الموضوعات، بات حكرا على جموع محدودة لم تضطلع بدور يذكر في التطور الثقافي وتشكيل السيرة والصورة التاريخية لحياة الشعوب المسلمة، ولم تملك صلاحيات في هذا المجال.

يذكر أنه على مدى كل العقود المنصرمة، منذ عهد ناصر الدين شاه وحتى عام ١٩٧٩، فان جميع رؤساء الوزراء والوزراء وأساتذة العلوم الانسانية والشعراء والكتاب و ... في هذه البلاد إما خضعوا مباشرة للتعليم على يد المعلمين الماسونيين (الماسونيون من أنصار المذهب الانساني) أو كانوا متأثرين بالماسونية ممن نشروا الأدبيات والأدب الذي تعلموه من معلميهم في الأوساط المختلفة، بحيث أن أساس النظام التعليمي والتربوي في ايران بني خلال كل هذه السنين على أساس الأفكار الغربية، مع اختلاف أساسي ألا وهو إن أيا منهم لم يتمكن من التحول إلى النزعة والفكر الغربي بالكامل بل تأثروا فحسب بأشكال الحضارة والثقافة الغربية، فاصبحوا منبهرين بالغرب وأرسوا بذلك تاريخ الإنبهار بالغرب لهذا الشعب على مدى مائة عام وخمسين عاما.

إن حادثة الإستغراب والإنبهار بالغرب إجتاحت ثلاثة ميادين عامة في حياتنا:

١. **الميدان النظري وعلم الوجود للمسلمين** بمبادئه وأسسه الخاصة التي تشكل أساس وجوهر حياتهم؛
٢. **الميدان الأدبي والثقافي** بوصفه روحا توجه جميع علاقاتهم ومناسباتهم على امتداد التاريخ وتجعل من الممكن فرز وتشخيص منطلق المسلمين ووجهتهم ومسارهم عن سائر الأمم، لاسيما الأمم الغربية التي أرست بعد عصر النهضة أساسا جديدا في الحياة على يد المفكرين والفلاسفة.

إن جمعا كانوا يظنون، إنه سيكون من خلال هذا الأسلوب، أي تقليد صور الحياة والمدنية الغربية، بوسعهم التحول إلى النمط والنزعة الغربية بالكامل مستقبلا، لكن لم يمض وقت حتى نبذوا ورفضوا من الغرب وأصبح لا حول لهم ولا قوة في الشرق، بل وصموا بالمنبهرين المنفعلين بالغرب فحسب.

٣. الميدان الحضاري، وفي هذا الميدان، ظهرت جماعة أخرى كانت تظن أنها ستكون من خلال تطهير هذه الثقافة الأجنبية، واقتباس المدنية وأشكال الحياة الغربية قادرة على السير في العالم الديني الشرقي، لكن ما إن استفاقت، حتى وجدت بعد التراجع التدريجي أنه لم يبق لها سوى صورة باهتة وطبعا علمانية ودنيوية عن الدين. وبالتالي فقد هبط هؤلاء في محطة الإستغراب والإنبهار بالغرب بين الصورتين الغربية والدينية.

إن حماية وصيانة المبادئ والأسس النظرية وتعميمها على جميع الحقول والساحات بما فيها الحياة الاجتماعية والمدنية، كانت مهمة الرجالات وكبار أهل الرؤية والنظر، إلا أن حكاية القافلة التي خرجت من ميقات الشرق لكي تكون بعد سلوكها الدرب، شريكا للغرب وتاريخه، هي حكاية أخرى. القضية التي جلبت العصرانية والسير على خطى العصرانية والحداثة فحسب.

ولا شك بانه في خضم الضوضاء والإستعجال وغلبة النفس الأمارة، فان أول جماعة تبقى منسية هم أهل النظر وأول موضوع يترك من دون اهتمام هو النظر.

وبعد واقعة المشروطة التي اعتبرناها المنعطف الأول، كانت واقعة الثورة الاسلامية الكريمة، المنعطف الثاني لسير وسفر شعب هذه البلاد. وهذه الواقعة قرعت أجراس نهاية تاريخ الإلحاد والنفاق في ظل المشيئة والوقت السماويين وبالإتكاء على إمامة رجل عار عن شوائب الإنبهار بالغرب وبالتماشي مع شبان ثوريين.

إن ما كان يفصل هذين المنعطفين عن أحدهما الآخر، هو المكانة والظرف التاريخي للغرب الذي كان مع الظهور المكتمل للتكنولوجيا في القرنين التاسع عشر والعشرين، قد بلغ آخر مرحلة من مراحل النمو واستعراض جميع قدراته.

إن تاريخ وقوع الثورة الاسلامية تقارن مع السنوات النهائية لتاريخ الغرب، في حين أنه في صدر المشروطة، كان الكثير من المفكرين والمثقفين الغربيين، يسمعون صوت إنهيار القلعة الحصينة لتاريخ التمرد والإستبداد هذا وكانوا يتحدثون عنه في أعمالهم[١]، إلا أن الشرقيين بمن فيهم الإيرانيين المنادين بالحداثة والعصرانية، لم يكونوا جاهزين للإصغاء إلى هذه الرسالة وكانوا ينظرون إلى مستقبلهم في مرآة الحضارة الغربية.

لكن ما يبعث على الأسف البالغ أنه على الرغم من جلاء واتضاح هذه الواقعة و توافر الظروف، فان السؤال من الغرب، أغفل مرة أخرى، بحيث أنه بعد السنوات التي أعقبت إنتصار الثورة و الحرب، أجهزت الرغبة و التعطش إلى الحداثة و

١. كتاب ومثقفون مثل غوتة ومارثين هايدغر وكيير كه غورد والدوس ليونارد هوكسلي واخرون، كانوا قد سمعوا صوت إنهيار الغرب قبل عشرات السنين من هذا وتحدثوا عنه في أعمالهم. وتم في كتاب «الغرب وآخر الزمان» إلقاء الضوء على الأوجه المختلفة لهذا الموضوع.

العصرانية مرة أخرى بلون وحلية مغلفة بثقافة إسلامية وشرقية على جماعة كانت تمسك بزمام جميع الأمور باعتبارها تضطلع بدور المدير و المعلم.

ضرورة التفكير و تحديد الحالة

إن السؤال يليق بمقام المفكر وأن التفكير يتطلب التذكير. إن مفردات وتعابير مثل الفكر والتفكير والمقام الذي يليق بالمفكر، تفقد معناها لدى الذين لا ينبهون الآخرين إلى الظروف والموقع التاريخي ومكانة الأمم عبر التاريخ. إن التفكير والمفكر والتذكير والذكر هي من المصطلحات والعبارات التي باتت لا أثر لها في إبراز جميع المعاني و المفاهيم الأصيلة والحقيقية بسبب اضطراب اللغة وابتعاد الأسماء والألفاظ عن معانيها الأصيلة والحقيقية على مدى الأعوام المائة ونيف الأخيرة. إن جميع العبارات و المصطلحات والأسماء والألفاظ الفارسية، جعلت في خدمة ترجمة التعاليم الحديثة، و أصبحت في الحقيقة لا علاقة وقرابة لها بتلك الأسماء والألفاظ. وهذا الأمر أبطأ درك الكثير من الموضوعات، لانه يطلق بناء على العادة والتقليد المتبع لقب المفكر والعالم و ما شابه على المتعلمين والدراسين في المدارس والمراكز الثقافية الغربية وبالأحرى متخرجي العلم الحصولي غربي المحور - والذين أصبحوا يفتقدون إلى الفكر والذكر بسبب الإستئناس والإشتغال بالعلوم العلمانية والدنيوية والغفلة عن التفكير القلبي و العالم المعنوي في الأغلب -. بينما يتم تجاهل حقيقة أن التفكير لا يحصل في خضم الزحام و الضوضاء وغليان الحب النفساني، وأن التفكير والمفكر لا يمتان بصلة أصلا إلى الزحام و الميل إلى المُلك و الحكم و التسلط.

وحسبما يقول الشيخ محمود شبستري:

إن التفكير بمغادرة الباطل والتوجه نحو الحق

لايتحقق إلا من خلال رؤية الكل المطلق

إن من يستعين في الدنيا، بعقل المعاش والتدبير الإقتصادي، لتدبر الشؤون المُلكية ويعتبر العلم الحصولي معيارا وحجة تامتين، فانه لا سبيل له للدخول إلى ساحة التفكير والإنخراط في جمع أهل الفكر. إن هؤلاء القوم ينتقلون بمدد التفكير، من الظاهر إلى الباطن ومن الجزء إلى الكل، ويرون في رقعة العالم الشاسعة، وجه المحبوب الأزلي والأبدي، ويدركون النسبة بين جميع أجزاء الكون من خلاله.

ويطلق اليوم و بسبب الإرتباك الذهني واللغوي، عنوان التفكير على أي نوع من التدبر والتأمل في الشؤون المُلكية والمادية وحتى الإنغماس في الهواجس النفسانية والرغبات الشيطانية.

إن الإفتراض العام للعمليين والبراغماتيين[١] الذين يفتقدون للفكر والذكر، يتمثل في أنهم في غنى عن أهل الفكر والنظر، أو أنهم يحسبون إن دعائم النظر قد أرسيت سابقا.[٢] وطبعا هؤلاء أي البراغماتيون، لا يخطئون كثيرا، لأن دعائم النظر، التي تمكن قوام العمل، قد تزعزعت، وإن منظمي ومرتبي أمور وتعاملات الناس، يتكئون بكل ما كان قد بني قبل هذا في بلاد الغرب، وإن هؤلاء يرون أنهم مكلفون ببناء صرح البراغماتية، أكان في السياسة أو الاقتصاد أو بناء المن و... على أساس النظر المقبول والمنشود في العصر الحاضر. إن حصيلة عملهم هي إرساء نمط

١. إن جميع المنهمكين في «تدبر الشؤون المُلكية» بمن فيهم السياسيون وأمثالهم، يندرجون ضمن هذا التعريف.
٢. للمزيد من المعلومات، يرجى قراءة كتاب «الفكر، الثقافة والأدب، الحضارة» للمؤلف، من إصدارات دار الهلال.

الحضارة والحداثة الإفرنجية في البلدان الاسلامية الشرقية وابتعاد الأجيال عن الدين وإعراض الشبان عن الأدب والتقليد الديني والأخلاق والقيم. وبلا ريب فإن إصلاح ما هو جار ومعمول به في جميع العلاقات الفردية والجماعية للناس، بمدد تلك الخبرات والعلوم سواء علم النفس وعلم الاجتماع و... - والتي تستند كلها إلى الأسس النظرية الغربية - لا يتمخض إلا عن المزيد من الأزمات، مثلما أن العودة البحتة إلى نمط الدين والعمل لإحياء هذه الصور، لا يؤتي أكله.

ويجب معرفة أن هذا الوضع المشوه، يقدر رزق ونصيب أمم الشرق طالما أنها لم تبدأ بشكل جاد السؤال من الغرب.

إن السؤال، يعود أصلا إلى وقت الحيرة والإنشداه، وحينما تطغى الأزمات وتربك كل شئ. وعندما يتم إخضاع تاريخ وفكر وثقافة ما بصورة جادة للسؤال والتحقيق، فان ذلك يشكل مقدمة للخروج من الأزمة وتحديد الحالة.

إن العنصر الضروري للسؤال من الغرب، يكمن في الشعور بضرورة تحديد الوضع والحالة وإعلان الموقف، مثلما أن ضرورة الخروج من الأزمة هي التساؤل عن عامل ومسبب الأزمة، وإلا فان الأمم التي لا تسعى لتحديد الحالة، وتهم في نطاق التاريخ الغربي وبالتالي بمدد العقل الجزئي وعقل التدبر والمعاش والمكاسب التكنيكية المنفعلة، لمعالجة الأمور، لا تجد ضرورة لطرح السؤال عن الحالة.

وربما لهذا السبب فان السؤال من الغرب قد بدأ من الغرب ذاته، وكما ذكرنا سابقا، فان الكثير من بين المثقفين الغربيين بمن فيهم اشبينغلر من فلاسفة التاريخ ونيتشة وكي يركه غورد وهايدغر وآخرون هم من هؤلاء.

الحياة الغجرية، هدية الغرب للإنسان!

إن حصيلة تاريخ الغرب على مدى أربعمائة ونيّف عام، هي الإبتعاد عن الذات الحقيقية واتباع الذاتية والأنانية والنهلستية والإعراض عن غيب العالم وعالم الغيب وبالتالي الكساح والإصابة بانواع الكوارث والمحن. إن هذه الذاتية، جعلت من الانسان أن يكون عديم الوطن[1] وعديم التاريخ، ودفعت به للتنقل في الأرض كالغجر.

إن السؤال من الغرب هو التساؤل عن غياب الوطن والحياة الغجرية للانسان. إن من ينظر إلى الحالة المرحة والرقص الليلي للغجر، لا تخطر على باله المعاناة والألم الناجم عن افتقادهم للوطن وتشردهم والآلاف من المحن الأخرى التي تعصف بحياتهم.

إن هذا السؤال كان له معنى في مستهل التعرف على الغرب، لكنه يكتسب معنى آخر في ظل الظروف المعاصرة.

ففي المنعطف الأول، أي صدر المشروطة، كان السؤال من الغرب يعيننا على الإنضمام إلى الغرب، لكنه في المنعطف الثاني، أي الثورة الاسلامية يعيننا على كيفية الإنفصام عن الغرب. طبعا إن كانت ثمة إرادة وعزيمة للإنفصال!

---

١. وحسبما يقول الشاعر، فان الوطن ليس مصر والعراق والشام. إن الوطن المألوف والمعتاد للانسان ليس الجغرافيا الترابية والأرضية، بل أن الوطن الحقيقي هو ذلك المكان الذي تهدأ وتسكن فيه الروح.

وقد بدأ التاريخ الجديد مع العدمية (النهلستية)[١] والذاتية، بحيث قال رينية ديكارت الألماني: أنا أفكر اذن أنا موجود.

واعتبر ديكارت «أنا المفكرة المستقلة الذاتية، المستغنية عن الوحي والسماء» بانها كافية ووافية للسير في العالم وتحديد الحالة في الوجود، وأرسي بذلك صرح هذا التاريخ لتظهر في السير التكويني جميع مظاهر هذه النهلستية والمتمثلة بانانية الانسان وسلطته وطغيانه.

وإن كانت أمريكا تقرع طبول الحرب اليوم فى آخر محطة من هذا التاريخ؛

وإن كان التكنيک والتكنولوجيا لا يسمحان بتجلى وتبلور أى محبة وولاية؛

وإن كان النظام المالى والاقتصادى العالمى يمسک بتلابيب المنظومة المعيشية لجميع شعوب العالم؛

وإن كان العلم والعالم الغربى يعتبران أنفسهما، المعيار والمقياس الوحيد والأصح والأحق لتحديد وتعيين هوية العالم والانسان؛

و إن ...

فهذا لا يعني سوى وضوح الشمولية والهيمنة في السياسة والاقتصاد و التكنولوجيا والتعليم والتربية وسائر الميادين. وفي الحقيقة، فان ماهية وذات التاريخ الغربي الذي يتجلى ويتجسد أكثر من أي وقت في هذا العصر. إن الهيمنة والتغلب كامنان في باطن الفكر والثقافة الغربية، الأمر الذي يتم تجاهله وإغفاله.

---

١. الذاتية والأنانية النفسانية، هي أن يعتبر المرء ذاته مقياسا ومعيارا، وينبذ عالم المعنى والغيب، ويشطب الله كونه حقيقة الحقائق عن ساحة الحياة الثقافية والمدنية للانسان.

إن السؤال من الغرب يوفر إمكانية تفسير وتبيان التاريخ والفكر الغربي المبني على الفكر المحوري، وفي هذا المجال فان أي حوار عن الغرب إستنادا إلى الأسلوب التحليلي والإنتقادي النابع عن العلوم الحديثة، لا يؤدي إلى معرفة هذا التاريخ، بل يقوم بابتزاز العقل.

و مع السؤال من الغرب، يتم إخضاع أسس الفكر والثقافة الغربية للتساؤل ويوفر ذلك إمكانية التحري عن أساسها، بحيث أن أي مصباح لن يضئ أمام القوم الذين يريدون تجاوز الغرب. إن السؤال من الغرب يعني التساؤل عن مبادئ وأسس العلوم الحديثة.[1] و إن التغافل عن هذا السؤال والناجم عن التشوق والميل النفساني للعصرانية والتكنولوجيا، لم يسمح إطلاقا بإلقاء الضوء على مبادئ وأسس العلوم التي استحدثت التكنولوجيا وهيمنة الحضارة الغربية على العالم، ويصر دائما على هذا الإفتراض المغلوط بان مبادئ هذه العلوم موحدة مع كل ما يتم الحديث عنه في حقل الثقافة الاسلامية عن العلم والمعرفة، وان الإنسان وحده، هو الذي تسبب من خلال الإستخدام غير الصائب، بظهور اضطرابات وأزمات وتخريب الموارد الطبيعية و ... .

و هذا الكلام، يطرح فقط ضرورة التساؤل، وأن كل انسان حصيف يعرف بان إختلاف واختلاط المبادئ والأسس حبلى بالازمات والإضطراب، بحيث أن الأمم الشرقية وبسبب الغفلة عن هذا السؤال وافتراض أن هذه المبادئ بديهية، أقحمت الأزمات في مختلف مجالات حياتها، وتقبلت وضعا إنفعاليا متلازما مع الإنبهار بالغرب.

---

١. للمزيد من المعلومات، يمكن الرجوع إلى رسالة نشرت للكاتب في هذا المجال تحت عنوان «نقد مبادئ العلوم الحديثة» عن دار «هلال» للنشر.

و لإكثر من مائة وخمسين عاما، يقوم سكان الشرق الاسلامي في أجواء الحداثة بتقليص طول وعرض التقاليد و الأحكام الدينية والثقافة التقليدية، وحتى أنهم أخضعوا الكثير من أصول وفروع الدين والتقاليد لمبضع العلمانية والدنيوية من خلال تقديم تفسير جديد عن الدين والتقاليد، ولم يقدروا على تجربة العصرانية بشكل كامل، بل ومع اقتناعهم بالحداثة، جعلوا علاقاتهم تمر بمزيد من التأزم والإضطراب، لكنهم ومع القبول بهذا الأسلوب أي عصرنة علاقاتهم الفردية والجماعية، أصبحوا يقلدون ويستهلكون سلع ومكاسب العلوم الحديثة في الميدان التكنولوجي فحسب، وتحولت جامعاتهم بكل ما تملك من رساميل مادية وعناصر انسانية إلى مختبرات لتعاليم العلوم الحديثة على مدى أكثر من مائة عام.

إن تجربة العصرانية بالكامل، مشروطة ومرتبطة بالضرورة بقبول مبادئ وأسس هذه العلوم وبسط النظرة العالمية الغربية وأضفاء الأصالة على العقل الكمي بين جميع العلاقات، في حين أن نظرة الانسان الشرقي والمسلم، هي نظرة دينية إلى العالم أصلا، وقبل أن يعتبر المذهب التجريبي، مصدرا للإنطباعات ومقياسا لقبول ورفض الأحكام والآراء ويرى أن مجمل الحياة تقتصر على العالم الطبيعي، فانه يؤمن حسب التعاليم الوحيانية، بالعالم الغيبي وغيب العالم وأن هذه العوالم تحظى بحقيقة وواقعية لديه ويعرف بان الساحات المعنوية والغيبية لا تتجسد في تجربة الحواس الظاهرية وذلك بسبب علو شأن ورفعة هذه العوالم.

إن خفض شأن الدين و الرؤية الدينية إلى مستوى مجموعة من الأحكام الفردية والشخصية والأخلاقية وإغفال بعدها المعنوي خلال القرون الاخيرة ـ لاسيما بسبب غلبة التاريخ الغربي ـ أدى إلى التكتم والتستر على هذه المنظومة المعرفية العظيمة

في ذيل التاريخ الغربي، وإن العلماء المتدينين ومن خلال الغفلة عن أهم أوجه هذه المنظومة النظرية، حسبوا أن ميدان التحدي والنقد، بات مغلقا أمامهم. وهذه الواقعة تسببت في تقويض وإضعاف جيل العلماء والحكماء الدينيين بحيث لم يبق ذكر وافتخار عن القافلة الكبرى للعلماء والفلكيين والرياضيين والأطباء و ... سوى عدد من المخطوطات.

يذكر أن العلماء المتدينين تابعوا حسب نشأتهم وتربيتهم الدينية أسلوبا خاصا، لم يسفر عن خروج المسلمين عن العالم الديني بسبب تناسب تلك الأساليب مع المبادئ والأسس الدينية ومقاصدهم الخاصة، بل جعلتهم أكثر رسوخا وأيمانا في هذ الدرب.

ولا يجب نسيان أن ميثودولوجيا العلوم الحديثة، تؤدي بشكل أصيل إلى بسط العالم الغربي والبقاء في هذا الطريق واستمرار حياة المذهب الانساني في علاقات عامة الناس.

ويقول السيد حسين نصر في كتابه «الحاجة إلى العلم المقدس»:

إن ما حدث خلال عصر النهضة وخاصة الثورة العلمية فى القرن السابع عشر، تمثل فى فرض «صورة» أو نموذج (Paradigm) جديد وغريب على محتوى هذا التراث العلمى، «الصورة» التى انبثقت مباشرة عن المجسم الموصوف أو المتصور فى شكل بشرى أو صفات بشرية[1] والمتسم بالنزعة العقلية لذلك العصر وعلمنة العالم وجعله دنيويا، والذى تمخض فى الغالب عن ما يسمى عصر النهضة برغم محاولات بعض الشخصيات الفكرية البارزة فى ذلك العصر لإحياء «الرؤية إلى الطبيعة المقدسة للمنظومة العالمية». إن هذه «الصورة» الجديدة أدت إلى علم أحادى الجانب وغير

---

١. Anthropomorphic.

مرن باق منذ تلك الحقبة إلى الوقت الحاضر، والتزم بالواقعية فجأة وأغلق الطريق على أى إمكانية للوصول إلى المراتب الأعلى للوجود أو مستويات الوعى، العلم الذى هو دنيوى وشغوف بالأمور البرانية.[١]

إن أهم تحديات الحقلين العلمي والشرقي، تكمن في قبول أو دحض الطبيعة المقدسة للعالم، بحيث أن جميع مراتب الحياة في المنظومة النظرية الشرقية والاسلامية متراصة في نسيج منتظم وحكيم وحصيف نسبة إلى حقيقة الوجود وأن جميع شؤون العالم، تجد موقعها في ذيل المعنى والمعنوية السارية والجارية في مجمل الوجود، وهي لا شئ من دون هذا الإرتباط.

وهذا الحقل، مختلف من حيث الرؤية والنظرة العالمية، عن العلوم والتقاليد الشرقية، بحيث يقول السيد نصر:

[إن هذين الحقلين] يختلفان بالكامل من حيث الرؤية والنظرة العالمية عن العلوم والتقاليد الشرقية الكبرى، بما فيها التقاليد الهندية والاسلامية، لذلك يتوجب دراستهما على أساس مواجهة الثقافات الشرقية.[٢]

إن عودة جوهر الفكر الانساني إلى الأرض والعالم بالطريقة التي ذكرناها، وغلبة التاريخ الغربي وإعراضه عن السماء، حول السؤال الأصيل إلى بحث وتحر بحت في الأرض وكشف العلاقات الكمية بين الظواهر، بحيث أن هذا البحث والكشف، جعل الغرب ينبهر بذاته ووجد نفسه من منطلق الظن، أنه مطلق العنان وفعال ما يشاء، وأعرض عن أي نوع من العبودية لله الخالق الأحد، وأصبح أنانيا وذاتيا وأراد فرض هيمنته وسلطته على العالم والانسان. وكان السؤال الأصيل هو

١. نصر، سيدحسين، الحاجة إلى العلم المقدس، صص ١٢٩ ـ ١٣٠.
٢. المصدر السابق.

الذي بقي خافيا أكثر من أي شئ اخر عن الأنظار في خضم هذه الضوضاء. السؤال الذي كان يظهر مكانة الانسان في الوجود ونسبته بحقيقة الكون، وكان يجعله في حيرة أمام عظمة خالق الكون، وجاهزا لقبول العبودية ونيل مقامها. وكل هذا كان يوفر لديه إمكانية ظهور الصفات والملكات الجلالية والجمالية، ويرفعه لأرفع مقام.

وكان السؤال الأصيل يوفر للانسان إمكانية تجلي مقام الحاجة في وقت المواجهة مع الإستغناء القديم.

إن نقل الحاجة إلى عتبة المستغني عن كل حاجة، يجعل الانسان جاهزا لإنكار الذات والإقلاع عن الأنانية، حتى يكون في مقام الصدق والوفاء جاهزا للدخول في جموع الصديقين، لكي تصبح إرادته من خلال ذلك إرادة الحق ويده يد الحق وقوله قول الحق ودوامه إلى الأبد، لكن هوس الإستغناء عن الحق، جعله ينتبه إلى ذاته و نفسه وأمارتها، إلى أن يتبلور فيه في مقام الزعم والإدعاء، الكبر والكذب. إن الهبوط في مقام الكذب، يجعل الإنسان جاهزا لمسايرة المكذبين، وتصبح إرادته عين إرادة الشيطان وقوله قول الشيطان، إلى أن يحرم في ظلمة الأنانية، من كل ما هو منسوب إلى النور والنورانية.

ويجب الإنتباه إلى أن ما جعل الإنسان محروما من لطف الله ولقاء الحقيقة، هو تركه لأدب العبودية.

إن ترك الأدب لا يقتصر على دورة بعينها، بل يمكن مشاهدة أنماط مختلفة منه في كل عصر وبين كل جيل، لكن مقارنة بكل الأعصار والقرون فانه يشاهد نمط خاص من ترك الأدب في العصر الحاضر وفي التاريخ الجديد الذي بدأ مع عصر النهضة الغربية، وهو يختلف أساسا مع ما اقترفه الانسان في العصور الأخرى.

إن الانسان لم ير في أي عصر من العصور كما هو في العصر الجديد نفسه في غنى عن السماء وخالق القيم والأحكام والعناية السماوية. إن هذا الشئ مختلف تماما عن كل ما عرفناه عن الذنب والجريمة والجرم والخيانة لدى الشعوب والأمم السالفة. وسنتطرق في الأقسام المقبلة إلى أوجه الإختلاف والأفتراق بين الفكر الانساني والمذهب الانساني الغربي وبين الفكر الديني.

إن مواجهة الانسان الشرقي والمسلم للثقافة والحضارة الغربية، لم تكن مواجهة للتيارات البسيطة، بل مواجهة لتارخ وفكر خاص تبلور في السير التكويني في الساحات المختلفة للثقافة والحضارة، وأن كلا من عناصر هذه الحضارة (وقياسا بتاريخ وفكرها الخاص حول الوجود) كانت تبدي وجها من ذلك التوجه الخاص.

إن ما يصر عليه الكاتب ويبينه تحت عنوان لنسأل الغرب، لا يتمثل في نمط العلاقات الفردية والجماعية، لانه في مطلق الأحوال، فقد قبل سكان البلدان الشرقية والاسلامية في موقف إنفعالي، النمط التاريخي والثقافي والحضارة الغربية وانصهروا فيها. كما قاموا باحلال أدبه وثقافته وحتى أوجها من علم الوجود الغربي محل إنطباعاتهم وقناعاتهم التقليدية عن طريق بسط وقبول العلوم الانسانية الغربية. إن هذه الدرجة من الإستغراب والإنبهار بالغرب، ليست بسيطة بحيث يمكن التخلص منها عن طريق إيجاد تغيرات في صورة الملبس وظاهر وهيئة الشوارع والأحياء ووضع عدة تعليمات وتوصيات للمواطنين. بل تشبه الحالة التي ينفذ ويتوغل فيها المرض إلى أعماق جسم المريض. وفي هكذا ظروف، فان أي مسكن ومرهم، لن يكون مجديا، وطالما لم يتم درك درجة ونطاق توسع المرض وعمقه، فان لا سبيل لعلاجه، علما أن علاج مرض الإستغراب يبدأ مع السؤال من الغرب.

إن التساؤل الجاد يغطي الحالات التالية:

١. طبيعة المرض وأوجه افتراقه عن السلامة والصحة؛

٢. نشأة المرض؛

٣. كيفية رسوخ ونفوذ المرض وكيفية ظهور أعراضه؛

٤. درجة تضرر وجهوزية المريض للتأثر بالمرض؛

٥. نسبة الخسائر والأضرار؛

٦. خيارات التخلص من المرض، وتقليص الخسائر وإيجاد الحصانة.

ولا يجب نسيان أنه بعد مائة ونيّف عام، فان فرص الكثير من هذه التساؤلات قد زالت، وظروفنا اليوم ليست بالظروف التاريخية للأعوام الأولى للتعرف على الغرب ولا الغرب يعيش الظروف التاريخية للقرن التاسع عشر للميلاد.

وفي المنعطف الأول، أي الحركة الدستورية (المشروطة)، فان التساؤل كان ضروريا للتعرف. واليوم حيث المنعطف الثاني وبعد الثورة الاسلامية (بتاخير دام ٢٣ عاما)، فان التساؤل، ضروري لتجاوز الغرب. ويجب القول:

فى كلا المنعطفين، فان جاذبة الغرب وانفعال الشرق، حالا دون طرح السؤال، بحيث أنه فى كلا المنعطفين، أنكر الشرق، بداية الغرب، ثم اعترض عليه، ومن ثم قبله بصورة مشروطة.

وفي المنعطفين، كانت ردة الفعل ناجمة عن ملاحظة النمط التاريخي للعلاقات. فالمتدينون تنكروا بداية لنمط العلاقات (سواء الملبس والمأكل والبناء و...) واعتبروها بانها تتعارض مع الدين والتدين وأصروا على الحفاظ على النمط التاريخي لعلاقاتهم التقليدية، ومن ثم أصبحوا من خلال الإحتجاج بصدد التعرف الصوري والمقارنة السطحية، وبعدها تراجعوا فقبلوها بصورة مشروطة، بحيث

أنهم افترضوا أنفسهم مخيرين في الإنتخاب وقسموا مجمل الغرب إلى قسمين الظرف والمظروف، وأرسوا الإفتراض على انتخاب الظرف وحذف المظروف في خطوة للتخلص من صعاب التساؤل والمجهود الرامي إلى المعالجة. وبهذا التصور، لم يروا أنفسهم في مقام الإنتقاء والإنتخاب، وبذلك مرت السنين بعد السنين ولم يطرأ أي تغير أساسي وجاد في أوضاعهم وأحوالهم، وتماشى كل شعب من الشعوب الشرقية كل حسب قدراته وبنيته مع الغرب ، وحافظوا على مستويات وأوجه من صورتهم الثقافية والحضارية السابقة كل حسب ماضيه وقدرته الثقافية والتاريخية، بحيث أن البعض ظن بان اليابان أنجزت الحداثة والتقدم في زمن ما على الطريقة الغربية مع الحفاظ على ثقافتها وأدبها وتاريخها.

إن وجود بعض الأنماط الثقافية في علاقات الشعب الياباني، لا يشكل دليلا على الحياة والتيار الفكري والثقافي التقليدي الياباني والشرقي، مثلما ان إعادة تأهيل أي من الأنماط الثقافية الماضية في هيئة المقاهي الفلكلورية وافتتاح المتاحف وما شابه ذلك، لم يؤد إلى تجديد الحياة الثقافية التقليدية في «إيران».

وأقول على سبيل المثال، ما الفرق بين الذي يسافر إلى مدينة «كاشان» بعربة يجرها حصان وبين الشخص الذي يستقل سيارة فارهة وحديثة ويتحرك في نفس الطريق نحو «كاشان»؟ وواضح أن لا فارق في الوجهة، بل أن كيفية الذهاب تختلف، مثلما أن لا فارق بين من يذهب الى أكاديمية العلوم الفرنسية وهو يرتدي قبعة وبين الشخص الذي يتجه إلى هذه الأكاديمية وهو يرتدي عمامة، ففي المرحلة الأولى، المهم هو الوجهة والإتجاه العام. فعندما نكون قد قبلنا العمارة الغربية، فان هذه العمارة تفرض علينا أدبها وأدبياتها حسب الصبغة الثقافية، أكان تم في أروقة ذلك البناء، نصب لوحات جميلة لخطاطين ورسامين تقليديين أو لوحات دا فينشي و

بيكاسو، فضلا عن أن اللوحات التقليدية تجعلنا نغط في غفلة مضاعفة، أي أنها توحي لنا باننا نتواجد في أجواء شرقية، بينما الواقع ليس كذلك. كما أن المقاهي الفلكلورية تفعل الشئ ذاته، مثل فسحة راحة بين الفصول الدراسية واستراحة في طريق طويل، فان ما يمر علينا، هو حصيلة جمع الطريق، المسار الذي نسلكه والوجهة التي نتجه إليها.

ولكل وجهة، إعتباراتها الخاصة بها، ولابد لأي شخص يود الوصول إلى وجهته، دركها وملاحظتها، فمثلا إن كان الوصول إلى قمة جبل «دماوند» وجهتنا ومقصدنا، فان من الضروري الإنتباه إلى الطريق الجبلي الوعر وبرودة الجو وانتخاب الملبس الخاص والأداة الملائمة والمرافق، للوصول إلى قمة دماوند، مثلما أن مسافر «الصحراء المركزية» لا بد له من ملاحظة جميع القضايا الضرورية التي ترفده للوصول الى الصحراء.

لذلك وكما قلنا، فان السؤال هو شرط لإختيار الوجهة واختيار الطريق واختيار وسيلة النقل واختيار المرافق واختيار الزاد.

وعلى مدى عدة عقود خلت، كانت ثمة عوامل عرقلت طرح السؤال بشكل جاد، وقبل طرحها، لا بد من قول أن السؤال الجاد يختص بالأشخاص الذين لا يعتبرون أي ذهاب ومجئ عبثيا وأي أمر يتناسب مع الإنطباع العام عن العالم، الأشخاص الذين أنكروا الذات ويعتبرون ساحة عقل المعاش بانها لا شئ وينظرون إلى العالم بمنظار الفكر، وهذا الفكر هو عمل أهل النظر ومختص بهم.

إن هذه العادة، بعيدة كل البعد عن تأمل عوام الناس وتعتبر حصيلة ومنتج حضور وحياة الانسان في الوجود، بانه إنجاز مادي بحت، وتقيس قدر الرجال بقدر مساهمتهم

في المجهود والعمل. إن التفكير هو عين العمل ويغطي الحضور الجاد لأهل النظر. الأمر الذي يساهم في بلورة الحياة المادية والثقافية لعامة الناس في الوجود.

وفي الماضي، كانوا يصنفون الحكماء الذين كان لهم باع طويل في الحكمة النظرية والعملية، في هذه المجموعة، لان هذا النوع من السؤال، هو نتاج قلق كبير ويؤسس لقلق كبير، وأن لا مكان لسؤال جاد لعوام الناس بما في ذلك أهل العمل المادي ومعماري العلاقات الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية. إن هذه المجموعة خاصة بالمعلمين ومغيثي الشعوب، إذ يُضر العوام في وقت غياب هؤلاء، بانفسهم ومقدوراتهم ومقدراتهم مثلما شاهدنا ذلك مرارا طوال التاريخ.

إن أعين وآذان العوام، مليئة بالبهرجة والضوضاء، لكن أعين ضمير أهل النظر، تهتم بالمعنى والمسمى والحقيقة والباطن الخفي، الذي يضفي أشكالا على الأنماط.

والمثال على ذلك العجل الذهبي من صنع السامري وكذلك موسى(ع). فعندما امتلأت الأعين والآذان بالعجل وصوته، نُسي موسى والكلام والكليم. وهنا لا بد من وجود موسى ليميط اللثام عن السامري ويكشف حقيقة الأمر.

إن إصرار وإبرام الغرب على المذهب الديمقراطي والمذهب الانساني وتقديمه مطلب أغلبية الجماهير على الأقلية كأساس ومعيار للعمل في العلاقات العامة الاجتماعية والسياسية، يشبه الشعوذة السامرية، لأن العوامل التالية تمنع طرح السؤال بصورة جادة:

- الإنبهار والشغف والوله؛
- ترجيح العمل على النظر؛
- القطيعة بين أصحاب الأمر والنهي والمناصب وبين أهل النظر؛
- و... .

و بعبارة أخرى، فان مجمل هذه القضايا تعود إلى الغفلة عن الفكر ومكانة المفكرين، وإلا فان من هو أهل الفكر، يدرك جيدا أنه لا سبيل لتجاوز الظاهر والخلاص من الوهم والظن من دون حجة دامغة.

فالغرب شأنه شأن السامري، جعل العجل الذهبي والملئ بالضجيج للحضارة العارية عن المعنى والمعنوية قرصانا لعقل وإيمان سكان الأرض وختم على الأعين والآذان بطريقة أنهم أصبحوا غير قادرين على درك أي معنى ماعدا ما يضعه العجل الذهبي بتصرفهم.

ويمكن رصد وتعقب هذا الموضوع في كل ما مر على سكان هذه البلاد أي «ايران» الاسلامية، لاسيما في المنعطفين المهمين آنفي الذكر.

إن المشروطة لم تكن ثورة أصلا، بل حركة وفورة تجسدت على هيئة إحتجاج سياسي واجتماعي ضخم، لذلك لم تكن تملك الأرضية لتجديد حياة الثقافة الاسلامية والتقليدية من دون طرح السؤال الجاد، بل أنها مهدت لدخول ايران إلى الحقل الثقافي والمدني الغربي من دون طرح السؤال، بحيث أن المثقفين المنشدهين، إنجروا وراء ذلك، لكن المنعطف الثاني، أي الثورة الاسلامية استحدثت نوعا من الأصولية. الأمر الذي كان بوسعه أن يكون نقيض الغرب في ميدان الفكر والثقافة. لذلك فانه كان يجب أن يطرح بداية هذه التساؤلات ومن ثم يخرجها من الإيجاز ليسهل ويمهد حركة عربة الثورة.

ولقد شهدنا في هذين المنعطفين دائما حضور وتواجد رجال في عملية صنع القرار والتوقيع، لم يكونوا قادرين لأسباب مختلفة على بلورة درك صحيح للظروف والوضع التاريخي لايران وموقعها في مواجهة الغرب. وفي هذا الخصوص يمكن دراسة الحالات التالية:

إن هؤلاء الرجال أكانوا يدرون أم لا يدرون،

١. قبلوا الغرب وأصبحوا يروجون له؛

٢. لم يكونوا يعرفون سبيلا للنجاة سوى التوجه نحو الغرب؛

٣. كانوا يتصورون أن الحضارة الغربية تمثل ديمومة طريق الأنبياء من دون أن يدركوا العلاقة والنسبة القائمة بين الفكر والثقافة والحضارة؛

٤. إنهمكوا في ما يشبه البراغماتية التامة، لكشف نسخة النجاة واعتبروا أنفسهم في غنى عن النظر؛

٥. أهملوا العلاقة القائمة بين النظرة العالمية وعلم الوجود؛

٦. كانوا يريدون من منطلق السذاجة تطعيم غصنين من شجرتين غير متجانستين.

لقد كنا مرغمين على التساؤل!

من الضروري الإهتمام بمبادئ وأسس استراتيجية ما، في الدراسات الاستراتيجية التي تنجز اليوم على نطاق واسع في العلوم الاجتماعية والسياسية ويوظفها جميع السياسيين لإدارة قضاياهم الكلية والجزئية. وهذا الشئ جعل من الممكن تحديد أوجه الاشتراك والإفتراق الجادة بين استراتيجيتين، لان كل استراتيجية تستند إلى مبادئ وأسس خاصة، لا بل هي حصيلتها وتروج لها في الوقت ذاته. إن جميع الاستراتيجيات لابد لها أن تلحظ هذا الشئ وتأخذه بنظر الإعتبار كامر مفرورض من دون أن تتحدث عن المبادئ والأسس.

والمؤسف أن الصراعات والتعارضات التي تعترض شئنا أم أبينا، الحياة الاجتماعية للبلدان الشرقية والاسلامية، تحول دون درك ضرورة هذا النوع من الدراسات. ومن هذا المنطلق فان المشروعات والخطط العامة لهذه الشعوب ومن أجل إدارة وتوجيه الجماهير، تفقد إلى المبادئ الواضحة والقابلة للدفاع ولا علاقة لها مع السابقة واللاحقة الثقافية والعقائدية للشعوب وبلدانها.

إن الثورة، تغطي التطور الثقافي المعمق لجميع العلاقات في كافة المستويات، وفي هذا التطور، فان مبادئ وأسس المعتقدات والقناعات السائدة، يطرأ عليها التغير قبل كل شئ. وبعدها الأدب السائد بين الناس.

إن الأدب، هو باطن جميع العلاقات المادية للناس، لذلك فعندما يطرأ تغير على الثقافة والأدب فان نمط العلاقات المادية وأدبيات الناس يتغير وفي هذه الحالة يمكن إطلاق إسم الثورة على حركة عامة، وبغير ذلك فانها ستكون بمثابة إصلاح وتغير سطحي.

إن الثورة، تغير العالم الذي يقطنه ويسلكه الناس، وفي هذه الحالة فانه إن تغير حتى شخص واحد من بين الجماهير ومستقلا عن المجتمع، فان عالمه يتغير ويتغير لديه كل شئ ومجمل علاقاته الفردية والاجتماعية وكل مقصوده ومقصده وكل أدبه وأدبياته وحتى المفردات والمصطلحات التي يتحدث بها.

إن الثورة تغير باطن هذا الشخص وعالمه. وتجعل منه مسافرا للسير في عالم آخر ومختلف عن العالم الجاري.

إن الثورات الكبرى تفعل بروح الشعب هكذا في المنعطفات المهمة للتاريخ. وتقلب أدب وأدبيات وسير وسلوك ونظرة ولغة الشعب رأسا على عقب.

إن الإشتراك في اللغة، يغطي الإشتراك في العالم، وأن التفاوت في العوالم، يؤدي إلى الغربة، حتى وإن كانا من الهندوس.

وربما أن هذا المعنى، ينبع من بيت مولانا حين يقول:

قد يكون هندوسي وتركي مشتركين في اللغة

وقد يكون تركيان، غرباء مع بعضهما البعض

فعندما يتغير العالم، يتغير كل شئ. وعندما يسود عالم ما، فانه يفرض صورته وسيرته على الناس، ويؤدبهم بادبه. ومن ظاهر الناس وكذلك الألفاظ التي يستخدمونها والأدبيات التي يعتمدونها يمكن فهم لأي عالم ينتمون. فان صبغ هؤلاء

الناس صورتهم البرانية بصبغة متعلقة بعالم آخر، مثل العالم الديني، فانه يتم كشف غربتهم مع ذلك العالم. وبلا شك يجب القول:

طالما أن نفس أحد ما لم تنفصل عن عالم ما، لا يمكن للأنماط أن تنفصل عنه من خلال التقليد.

إن الثورة تحدث في باطن الضمير لا في الشعار والألفاظ. إن الثورة بباطن الضمير قادرة على أن تغير عالما. وهذا التغير في الباطن، يُنشئ ويُربي الإنسان ويبدل وطنه، وكما يقول مولانا:

إن هذا الوطن، ليس مصرا وعراقا وشاما.

والمؤسف انه بسب غلبة هذا العالم الغربي الجديد، فاننا نفهم من كلام أسلافنا، شيئا آخر، فمن كلام رسول الله(ص) حيث قال «حب الوطن من الإيمان»، نفهم حب الجغرافيا الترابية على طريقة القوميين العرب والقوميين الأتراك، ونترجمه بهذه الطريقة أيضا. وبالنسبة للعرب والتركي والفارسي الذين يسيرون في العالم الغربي، فان الوطن هو «العراق» و «اذربيجان» و «ايران»، لا القرب إلى الله وانعدام الوجود.

وأصبح الوطن لدينا ليس إلا «مصر» و «العراق» و «الشام». فعالم الأنس وديار الروح، ليس وطننا المألوف، بحيث أن ذكر اسمه يجعلنا مضطربين ويدفع طائر قلبنا إلى التحليق في أجوائه.

إن كل انسان، يخفق قلبه في أجواء وطنه. ويمكن من خلال سيماء أي قوم ولونهم ووجههم، معرفة اسم وعنوان وطنهم، وتشخيص من أين أتوا وإلى أين ذاهبون. ويمكن من خلال اضطرابهم، والضرب برؤوسهم بقضبان القفص، معرفة

رغبتهم القلبية وضالتهم. وكل امرء، يحل في مطرح ما، يتخذ منه وطنا، وفيما عدا ذلك، فان كل مكان سيكون غريبا وسجنا بالنسبة له. حتى إن زخرف جدران السجن والقفص بكل أشكال الزخارف والتزيين، فان الطائر الذي لا ينتمي إليه، سيشعر بالعذاب والمعاناة.

ولكل عالم، لونه ونكهته، يعرفهما أهله. إن من يسير في العالم الديني، يسير في العبودية ومن يسير في العالم المادي، يسير في الأنانية، بحيث أن الانسان الذي لجأ إلى هذا العالم وأعرض عن المبدأ السماوي، يتبع الذاتية. لذلك فان كل شئ في هذا العالم تنبعث منه رائحة الأنانية، بحيث أن الثقافة والأدب الغربيين وما تفرزانه، ينطق بهذا الشئ. ففي هذه الديار، فان الانسان لا يتأدب بادب أهل العبودية، بل يتبع أدب أهل العصيان، وكذلك أدبياته، فالموسيقى والمعمارية تطلق صرخة «أنا الحق الفرعونية»، ويمارس الكبر والغرور ويقف بطغيان بوجه أمر الحق ويدعو الاخرين إلى المبارزة.

وفي المقابل، هناك العالم الديني، الذي تفوح منه رائحة العبودية. إن من يسير في العالم الديني، فان منزله يشير من دون أي لوحة وعلامة، إلى كونه عبدا، ولا حاجة له للإعلان والدعاية وكتابة الشعارات، وكل مكان في مدينته وسوقه، يصرخ «أنا العبد وأنت المولى».

وإن حدثت الثورة في النفس، فانها تغير عالم الناس، مثلما أن الثورة الثقافية في الغرب أدت إلى ظهور عالم لم يكن قائما من قبل. وقد استأنست آذاننا لسنوات بالأدبيات المتعلقة بالعالم الغربي والأدب الغربي، وترى أعيننا الشئ نفسه. لذلك فاننا لا ندرك أدب وأدبيات الأسلاف الذين كانوا يسيرون في عالم آخر، وننظر اليها

بنظرة ترديد وسوء ظن ونضطر دائما لترجمتها. ونضفي على كلامها وكلمتها لونا عصريا، ونجعلها تتأقلم مع الأدب العصري، ونصنع مرادفا عصريا لكل مصطلحاتها وعباراتها، ونقوم بتحديثها ثم نقبلها بطيب خاطر، بينما عبثنا بها، لا يبقي منها شيئا سوى صورة ونمطا يفتقد إلى الروح والأدب الأصلي.

وأليس أننا نصنع للوضوء والصلاة والصوم، المئات من الأوجه العلمية والمنفعة الحسية والخاصية الجسمية ونهيئ شرعية علمية من أجل استمرار حياتها في العصر الحاضر؟! وبهذه الطريقة نجعل الآداب والتقاليد المتعلقة بالعالم الديني متناغمة مع أدب وأدبيات العالم الغربي الجديد. إننا نقوم بازالة القدسية عن جميع مكاسب الأسلاف في مصنع العلمانية والدنيوية ومن ثم نقوم بتغليف النمط الحديث والمحدث الدنيوي ونعرضه على السوق.

وإن نطلق يوميا مئات الوف المرات صرخة «أنا العبد وأنت المولى» أو نكتبها ونعلقها على جدران المدينة ونتلوها بصوت رخيم، فان ذلك لن يجدي نفعا، فعندما توفر مدخراتنا في البنك، أمننا والسحب السنوي لفلان مصنع سعادتنا والتأمين صحتنا وعدد الليرات الذهبية التي تحدد في حفل عقد القران، مستقبلنا، فلأي أدبيات ينتمي الفائز السعيد وما يتلوه من الإستقرار والسكينة والإدخار في فلان بنك، وهو نتاج أي أدب وسير في أي عالم؟ إن عبارتي الأنانية والعبودية تميطان اللثام عن سر العالمين.

بوابات العالم الدينى والعالم الغربى!

إن بوابة الدخول إلى العالم الديني، هي العبودية وبوابة الدخول الى العالم الغربي هي الأنانية. ومن غير الممكن الخروج من العالم الغربي، إلا اذا خرج المهاجر إلى الله من بوابة إنكار الذات. وفي الحقيقة فان قمقم عمر هذا الغول، هو إنكار الذات شريطة أن يحدث إنكار الذات هذا في الحال لا في هيئة اللفظ.

إن الشهادة اللسانية، لا تعني أبدا دخول الشاهد إلى العالم الإيماني. وليس عجيبا أن تحدث الهيمنة التدريجية للثقافة الغربية على البلدان الاسلامية في وقت كان يسمع صوت الأذان من جميع مكبرات الصوت لديهم؟

إن جملة رينية ديكارت المعروفة «أنا أفكر، اذن أنا موجود» مبنية على المراجعة وتسليم الإنسان إلى ذاته، وما أدى إلى ظهور عالم نطلق عليه إسم العالم الغربي. إن هذه الجملة القصيرة مؤشر على التطور في داخله. فقد ولج ديكارت عالما جديدا. إن هذه المراجعة، أسهمت في كشف معرفة جديدة بشأن العالم والانسان، المعرفة التي كانت تستند بالكامل إلى الإنطباع الكمي عن الزمان والمكان وقلصت من مكانة الانسان إلى درجة حولته إلى سلعة استهلاكية وأضفت عليه هيئة الكمية الهابطة البحتة. إن هذه الحادثة لم تكن مسبوقة قبل هذا في أي حقبة من حياة البشرية.

وبذلك أفرغ العالم والانسان من الإعتبار القدسي وأضفيت الجزمية على التجربة الحسية لدرجة أن الانسان رأى أنه في غنى عن الرجوع إلى أي معرفة أخرى لدرك العالم ومعرفته.

إن التغير الكبير في عقلية ودرك الانسان الغربي عن العالم، أدى إلى إنبثاق مفاهيم جديدة لكل شئ. فالانسان الغربي وبهذا الدرك الجديد والمفاهيم ومستمدا من تلك القوانين الجديدة أقدم على إختلاق أدب جديد وأدبيات جديدة لكي يوسع نطاق عالمه الجديد ويزيد من عرضه وطوله وعمقه.

إن الذاتية التي شكلت أساس ذلك، أي الأنانية اعتبرت قاعدة جديدة للمعرفة وتركت على مدى أربعة قرون أثرا معمقا على الحياة الثقافية والمادية لشعوب العالم، بحيث أن العلم التجريبي أصبح رافع راية العلم بحقيقة الأشياء، وأن جميع أبناء البشرية في أرجاء العالم يسيرون في هذا العلم ويتنفسون في هوائه ويضحون على عتبته بجميع إنطباعاتهم ومواريثهم وتقاليدهم الدينية وهم عاقدو العزم على حفظه وديمومته والسير فيه. وقد بدت اليوم آثار التصدع على جدران هذا العالم، لكن مازالت معارضة هذا الصرح، لايحبذها الكثير من الجماهير.

ومن غيرالممكن اعتماد استراتيجية إنكار الذات، من دون التساؤل من الغرب، فعندما لا نعرف شيئا ما، كيف يمكن لنا أن ننبذه؟ وقرابة نحو ربع قرن حملت جماعة من الناس، فأسا تضرب به وجه ورأس الغرب، لكن لا حدث كبير يحدث، حتى في الرقعة الصغيرة للمدينة والقرية التي نقطنها.

ومن يوجه هذه الضربات؟ وكيف يضربون؟ وأي نقطة يستهدفون؟ وحتى إن انهال الجميع في ظل السلام والصلوات والتحلي بالأنماط الدينية، بالضرب بواسطة

هذا الفأس، لكنهم لايعرفون أي كائن وباي أبعاد وأوجه يواجهون، فانهم لن ينالوا النتيجة المرجوة التي ينشدونها.

فقد تلقى الشرق، خلال القرون الأخيرة أكبر قدر من الأضرار القادمة من الغرب، سنذكرها لاحقا. إن هرطقات التاريخ الجديد هاجمت جميع التقاليد الشرقية وجعلتها عرضة للزوال. وانتزعت منها بذلك كل فرصة للظهور والبروز. ففي الظروف التاريخية الجديدة التي طرأت، فان الاسلام يجعل سكان هذا الجزء الشاسع من الكرة الأرضية جاهزين للتحقيق في الوضع الطارئ، لان المسلمين وبسبب امتلاكهم أنصع وأطهر التقاليد والإنطباعات عن العالم، أكثر من باقي سكان الشرق جهوزية لطرح السؤال، فيما توفر الإنطباعات الأصيلة للمسلمين والنابعة من الساحة المقدسة لحقيقة كتاب الله وسنة وسيرة النبي الأكرم(ص)، إمكانية الرجوع إلى باطن العالم وبداية الوجود وحقيقتهما، وبما أن آيات كتاب الله وسنة آل الله، تحوي وتحمل حقائق، نازلة في هيئة الكلام والكلمة من الساحة القدسية وتشرف على ذلك العالم، فانها توفر إمكانية الرجوع إلى باطن وحقيقة العالم وبداية الوجود.

وليس ثمة كلام لدى أي من أمم الشرق، أكثر قربا من مكمن الغيب، لان مجمل هذه الأعمال وحسب الوقائع غير الوحيانية والمحرفة، مدنسة بالإنتقائية والخرافة، بحيث أنه في تقاليد الشرق الأقصى مثل «اليابان»، ينطوي مذهب «شنتو»[١] على الجهوزية لتقبل الغرب والإنطباعات الدنيوية والعلمانية. الجهوزية التي تجعل من الممكن تحول اليابان إلى بلاد غربية. كما أن التقليد الديني للمسلمين، يحتوى على أكمل جزء من الرؤية الدينية وأوجهها المختلفة، وأن علماء هذه الديانة يسهمون

١. Shinto و تعني طريقة الآلهة، وهي ديانة اليابان القديمة. و تعتبر هذه الديانة الشمس بوصفها الإله اماتراسو حارسا لأرض الأجداد وأن الأسرة الملكية هي سليلة هذا الإله وتجسده.

أكبر إسهام في تبيان وتفسير ونقل هذا التقليد، لذلك فان التزام مثقفي هذه الديانة يبدو أكثر من الاخرين، لكن يجب معرفة أن هذا التعهد والإلتزام لا يتحقق[١] فقط في ميدان التتبع والبحوث الدينية وإن كان بالإستعانة بالميثودولوجيا الغربية التي هي مدينة بالكامل للمذهب العقلي[٢] والوضعية[٣] والبرغماتية[٤].

١. لقد حاول العديد من الباحثين في الحقل الديني خلال الأعوام الخمسين الأخيرة على الأقل ، إنجاز بحوث دينية بالإستعانة بالميثودولوجيا الغربية. إن دراسات من هذا القبيل حول الشرق والتقاليد الشرقية والدينية أنجزت على يد الباحثين والمستشرقين الغربيين أكثر من الباحثين الشرقيين. إن التتبع في حقل التاريخ والتصوف والمشاهير والفلسفة ليس مفيدا بالنسبة للشرقيين الذين يجدون ملاذهم ومأواهم في الغرب أو بين الغربيين، بل أنه يدفع المفاهيم والمعاني إلى التكتم والإستتار أكثر فاكثر. إن المستشرقين قاموا خلال التتبعات والبحوث في المصادر والنصوص الشرقية بتقويض مكانتها المعنوية وجعلوها في خدمة ثقافتهم وحضارتهم من خلال إزالة القدسية عنها وتقديم تفسيرات مادية وتجريبية.
٢. إن القصد من العقل (راسيونال) هنا يختلف عما تحدث عنه المتقدمون. إن هذا الإنطباع الحديث بالكامل، متعلق بالعصر الحديث ومقرون بالغفلة عن الفكر المعنوي. ويطلق على هذا العقل إسم العقل الجزئي أو العقل المشترك (ما هو مشترك بين جميع أبناء البشرية بالتساوي). إن الانسان غير قادر بمدد هذا العقل على درك العالم المعقول والمجرد.
٣. الفلسفة الوضعية، هي من التيارات الفلسفية المعاصرة التي تركز على المذهب العقلي والمذهب التجريبي وتستند إلى الوقائع التجريبية البحتة عن العالم وترجح هذه الوقائع على الوقائع الأخرى.
٤. البراغماتية أو المذهب العملي. وهذا المذهب هو معيار العلم الحديث وحقيقة الأحكام التجريبية ويضفي عليها المصداقية والإعتبار. وفي العصر الجديد فان العلم الجديد يبدو مبررا لجهة أنه يحقق الآثار والنتائج العلمية للبشرية ويوفر إمكانية التدخل والتصرف في الأرض، وغير ذلك، فان أي إنطباع ووقائع لا تكون مصدر العمل والتصرف حسب الدرك الحسي والمادي عن الوجود، تعتبر مرفوضة.

نحن و الميثودولوجيا الغربية!

إن الميثودولوجيا أو علم المنهج الغربي يهضم الأعمال الشرقية بداخله. ويطبع نمطه التاريخي عليها ويفرغها من محتواها. فضلا عن أن الشرقيين يدرون أم لا يدرون، ينشرون منهج البحث المتبع في جميع فروع العلوم والفنون الجديدة بين باحثيهم وطلبتهم ومراكزهم العلمية والبحثية وذلك بواسطة الماسونيين وأصحاب النشأة الغربية وبدعم من تخطيط منظمات بما فيها اليونسكو، إضافة إلى أن الشرق وانفصاما وانقطاعا منه من التقاليد الشرقية، يصب جل اهتمامه على التقدم والعصرية والحداثة.

ومنذ أواخر القرن الثامن عشر للميلاد، بدأ المستشرقون الغربيون وتلازما مع العسكريين والسياسيين الغربيين، هجومهم على الشرق، واجتاحوا جميع مساحات الشرق، وأخذوا معهم جميع الكنوز الثقافية الشرقية، وملاوا المتاحف والمكتبات البريطانية والفرنسية والالمانية والامريكية والايطالية بالآثار الشرقية وقدموا تفسيراتهم المبنية على الذاتية للأعمال الثقافية الشرقية، وعلمنوا الآراء والأقوال الدينية، وعمموا من خلال تنشئة وتربية طلبة شرقيين والتواجد في الأوساط الدولية والجامعية، علم المنهج الخاص بالعلوم الحديثة على الدراسات الثقافية والانسانية.

وإضافة إلى كل ما يجعلنا جاهزين لطرح السؤال، فان الرؤية الولائية التي تشكل جوهر وروح الثقافة الاسلامية والحضور التاريخي للجماهير في ساحات الحركات الاجتماعية، يملك القدرة على الوقوف تماما بوجه المذهب الانساني الغربي.

وكيف يمكن قبول أن معلمي ومروجي العلم الحديث ـ ممن يفتقدون إلى الأداة والقدرة على الدرك الواسع للمعارف والحكمة الشرقية ويحصرون مجمل العوالم والوقائع والمعارف في حدود المذهب العقلي والفلسفة الوضعية ـ قادرون على الحديث عن شأن وانطباع علماء الحكمة والمعرفة الشرقية والقلبية ويكرمون مقامهم؟!

إن الأصالة اليوم هلى ل«الناسوت» ... إن ما يكتسى أصالة هو عبادة الدنيا وخلال هذه الأعوام المائة التى مروا عليها جمعوا هذين الإثنين معا، فقد جمعوا جان بول سارتر مع القرآن وحولوه إلى إله الناس. إن النسناس الكبير هو الحوالة التاريخية للعصر الحديث، لكن وعلى أى حال فان الانسان يمضى قدما باتجاه النسناسية، ويتم بسند من أمثال «بازركان»، تعبير ناس القرآن بعلى بن ابى طالب وربما ابى ذر الغفارى. والان إن أتينا وجمعنا على بن ابى طالب مع العقل والرأى المعاصر والانسان المعاصر، فان ما يكتسى أصالة هو العصرنة.[1]

وفي العقود الأخيرة حيث أصبح التاريخ الغربي في منحدر السقوط والإنهيار، بدأ في الغرب نوع من العودة إلى الشرق والمعنى والمعنوية. فقد قام الانسان الغربي بمراجعة أنماط الأعمال والمناسك التقليدية، لإيجاد محمل للهروب من الطبيعة الثقافية الغربية والتعويض عن ثغراتها الجادة، وعمل على ترويج بعض

١. فردید، سیدأحمد، اللقاء الفذ وفتوحات آخر الزمان، صص ٧٩ ـ ٨٠.

التعاليم المنعزلة عن المبدأ البوذي والبرهمائي والصوفي و... لتكريس عنصر يسكن آلامه ويهدئ من روعه.

وربما يمكن القول أنه في جميع أرجاء البلاد الشرقية التي أرسى كل قسم وقطاع فيها تقاليد ورؤى خاصة بمنطقته حول العالم والانسان، فان المسلمين وبينهم الشيعة، هم أكثر استحقاقا من الآخرين لتبوؤ موقع طرح السؤال من الغرب، فضلا عن أن هؤلاء تكبدوا أكبر نسبة من الخسائر على مدى العقود الأخيرة.

إن الفكر المثالي والإعتقاد بالموعود، رغم أنه كان مرسوما وسائدا بين عموم الملل والنحل بمن فيهم أنصار التقاليد الشرقية في شبه القارة الهندية، لكن هذا الفكر لم يكن سائدا ورائجا لدى أي من هذه التقاليد بقدر ما هو لدى المسلمين والشيعة، بحيث يمكن اعتبار هذا الأمر الميزة التي تميزهم عن سائر الأمم. ويمكن تحديد مواصفات المجتمع المثالي وسلسلة الوقائع التي تؤدي إلى تحققه على أرض الواقع والخصائص الطبيعية والمعنوية للمنقذ وكذلك تحديد كل ما يقع في سنوات ما قبل وقوع هذه الحادثة الهائلة وما بعدها، لدى أنصار الفكر المثالي. إن هذا الفكر التقليدي والمثالي ومواءمة مع التعاليم الدينية ـ والذي استمر جيلا بعد جيل إلى يومنا هذا ـ أسهم في بسط مجموعة من التوجهات في الميادين التاريخية المختلفة (العلاقات الفردية والجماعية) واكتسب إمكانية الولوج في حقل الإدارة والهندسة الإجتماعية تجاه النظام الاجتماعي الغربي.

ولا بد من التذكير بهذه النقطة من أن هذه التعاليم في التقليد الشيعي، يمكن تحديدها إجمالا في نسيج متماسك ويستند إلى ماض معلوم وحقيقي ومنطقي. وفضلا عن تمتعها بالجانب القدسي فانها تملك وجها حقيقيا وبارزا بسبب استنادها إلى تعاليم

آخر النبيين الإلهيين، ألا وهو النبي الأكرم محمّد(ص)، في حين أن سائر الأمم الشرقية، تستند إلى نوع من الأمر القدسي، لكنها لا تتمتع بامكانية قوية ومؤثرة للولوج إلى ساحة التاريخ، بحيث بقيت صورة بعيدة وذهنية عن سوشيانس وموعود الزرادشت وهي تحمل معها رمزا واشارة عن قناعة تقليدية بشأن منقذ آخرالزمان.

والمنقذون المنتمون لسائر الأمم، لا يملكون مشروعا وكلاما منسجما ومتماسكا لحياة الانسان في سنوات ما قبل الظهور، أو على الأقل، لم يصل ذلك إلى زماننا على أثر مضي الأيام. في حين أن هذا الموضوع له وجه مختلف بشأن المنقذ الموعود للمسلمين والشيعة. إن الحضور اللامع لهذا الوجه من التقليد الديني على هيئة المنقذ الموعود، يؤدي إلى انبثاق روحية المجاهدة والبسالة لدى أنصار هذا التقليد، والجهود المتواصلة لتجاوز الوضع القائم والتمهيد لبناء الوضع المرجو، وأن هذا الموضوع ينطوي على مجمل معنى ومفهوم الثورة.

إن القصد من الثورة، ليس مسار تيار سياسي أو حراك اجتماعي، تبعا لإيديولوجية ما. وحسبما يقول الأستاذ المغفور له أحمد فرديد:

إن الثورة عبارة عن تحويل الانسان للنمو من عالم الشهادة [الملک] إلى عالم الغيب.[1]

إن التحقق الكامل والتام لهذه الثورة، ممكن مع ظهور إمام العصر والزمان(ع). الواقعة الشريفة التي لم تتحقق بعد.

---

١. اللقاء الفذ وفتوحات آخرالزمان، ص ٦٦.

إن الإدبار عن عالم الغيب والرجوع إلى حيث الفكر، دفع بالانسان إلى العالم المادي. ومن هنا فان الانسان الذي يفتقد إلى الوطن والمنزل، تورط كالغرباء في برهوت الكرة الأرضية والمادية البحتة.

ويقول المرحوم فرديد:

فى العهد الجديد، فان الأصالة أصبحت تعود للانسان، وطاغوت الانسان وطاغوت النفس الأمارة. إن النفس الأمارة باتت تكتسى أصالة.[١]

إن عودة الانسان المسلم إلى المهدوية (بالمعنى الأصيل للكلمة وحقيقة الموضوع) تمهد للثورة والعودة من عالم الناسوت. وإن تلازمت هذه العودة مع طلب وإرادة سماوية، فانها ستمهد لثورة كبرى، أى ظهور الإمام المهدى(ع).

لقد ذكرنا سابقا إن عودة الغرب وجميع ايديولوجياته هي عودة إلى النفس الأمارة والطاغوت وعودة الدين الحقيقي إلى الله هي التي تحقق تجسيده التام والكامل في عودة الإمام المهدي(ع).

إن الفكر الغربي يقف على طرف نقيض تماما من فكر آخر الزمان الشيعي. إن هذا يفهمه الغربيون لاسيما منظرونهم أفضل منا نحن المسلمون، وإن سر كل هذه الطوائف والفرق وتربية الممهدين المدعين على مدى الاعوام المائتين الماضية وخوض مواجهة مع المسلمين لاسيما الشيعة، يكمن في هذا الموضوع.

وفي التقليد الشيعي والأدب الاسلامي، فان جمال الحق يتجلى في سيماء الانسان المتكامل الإمام صاحب الزمان(ع) وإن الطالب لقائه هو طالب وجه الله وبقية الله لا

---

١. المصدر السابق، ص ٧٩.

وجه الطاغوت والنفس الأمارة. وفي هذا التقليد فان وجه الله ليس سوى الإمام المبين، بحيث أن الخلاص من هذا الكفر الغربي، يشكل مقدمة للقاء الموعود وبما أنه لم يحدث، فان الشيعة تنتظر وتنادي بثورة وتبحث عن ثورة. إن هذا الظهور يطرأ في الروح، وإن الطالب الحقيقي يكون جاهزا للثورة وجديرا للقاء ويشهد ظهور وجه الله حتى وإن لم يحن وقت ظهور الإمام، وقبل أن تسدل الستار جانبا بقوة يد الله ويصبح لقاء بقية الله عاما، فان الشيعة المنتظرين، يتاح لهم الدرك الحضوري والشهودي لوجه الله الأعظم بمدد العناية الإلهية.

إن زمان الظهور وطول الإنتظار، ليس موحدا بالنسبة للجميع. فاالظهور بالنسبة للبعض، يحدث في الروح باذن الله وحسب الثورة، بينما قد لا يحدث هذا الظهور لعامة الناس حتى مائة عام أخرى وحتى أنهم لا يدركونه في زمان الظهور والحضور. إن صاحب الزمان(ع) في مقام وشأن سبيل الله، يرشد المنتظر حتى باب الله، ومن ثم يوجهه في شأن باب الله إلى ساحة يشهد فيها وجه الله.

إن الطرح والبسط الشامل لهذا الموضوع والمضمون في الثقافة الولائية الشيعية، يهيئ ويعد الشيعة للثورة ويكلفهم طرح السؤال على الغرب وكل ما نعتبره أنه أبعد الانسان عن عالم اللقاء، التكليف الذي أرجئ تطبيقه منذ صدر المشروطة وحتى الوقت الحاضر.

الوَلاية والوِلاية

إن الوَلاية (بفتح الواو) تعني المحبة والعشق والصداقة والوِلاية (بكسر الواو) تعني الحكم والسلطة بحيث أن الوَلاية هي صورتها الخارجية التي تظهر.

وطالما لا ينبعث الحب والمحبة والعشق من الصدور، فان الخضوع والتذلل عند عتبة حضرة الحق، لا يكتسي معنى، فالعاشق يضع من منطلق العشق والمحبة، قرط الخضوع أمام المحبوب في أذنه، لانه يشاهد من منطلق المحبة، كل علائم الصداقة والمحبة في كل مكان من العالم. فينسلخ من ذاته ويغادر نفسه ويجعل المحبوب يعتلي عرش حكمه وولايته.

إن الخضوع والطاعة عند عتبة حضرة الحق ليس نابعا من الخوف والهاجس بل من المحبة والصداقة. فالعاشق يضحي بالإسم والجاه والروح من أجل المعشوق، ولذلك فان العبودية والطاعة على طريقة المتربحين والمتكسبين، هي عين الذلة والمهانة. إن العاشق يعتبر المعشوق، على حق وأفضل وصاحب شأن رفيع، وينصهر في مغنطيس حبه ويضيع كالقطرة في أعماق البحر، لكي يبقى برعاية ولطف البحر.

إن كل ما يصدر من رب العالمين في مدرسة التدين والعبودية لحضرة السبحان، هو انعكاس للمحبة. إن باطن الجلال والإبتلاء والإمتحان وانزعاج الصديق هو جمال ومحبة، لكي يحظى عبد باللياقة للجلوس بجنب السلطان، ويتمتع بمائدته ويعتز بها. والنقطة الظريفة هي أنه في مذهب المحبة والصداقة التي تشكل أساس التدين، فان العبد يرى أن مجمل كفاءة التدخل والتصرف هي من اختصاص الصديق.

ومن دعاء أمير المؤمنين الإمام علي(ع) في التذلل:

«مَوْلاىَ مَوْلاىَ، أَنْتَ الْمَوْلَى، وَأَنَا الْعَبْدُ.»[1].

ويمكن القول أن جوهر وفص وِلاية وحكم حضرة الحق، نابع من كنز الوَلاية و المحبة.

ويقول المغفور له الدكتور فرديد في هذا الشأن:

... أحدهما القرب والمحبة والآخر المُلك والسياسة. ويكون الحكم صحيحا إن شكلت الوَلاية، باطن الوِلاية.[2]

إن من يتبجح بالوَلاية والمحبة، فانه ينأى بنفسه بالضرورة عن تقليد العبودية (حسبما يقول الاستاذ فرديد). فعندما يتقبل العبد وَلاية ومحبة الولي، فانه يكتسب استحقاق وأهلية الدخول إلى دائرة وِلاية ومحرمية المولى. لان المحرمية لن تتحصل من دون الوَلاية، ولا يسطع نور وهداية من جانب المولى على صدر وقلب العبد.

وفي الآية الكريمة «اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ»[3] فان العامل الضروري للخروج من الظلمة والتوجه نحو النور، يتمثل في قبول ولاية وقيمومة المولى التامة وأن هذه الوِلاية قائمة بحد ذاتها على أساس الوَلاية والمحبة،

---

۱. مفاتيح الجنان، مناجاة أمير المؤمنين(ع) في مسجد الكوفة.
۲. اللقاء الفذ وفتوحات آخر الزمان، ص ۵۱.
۳. سورة البقرة (۲)، الآية ۲۵۷.

أي أن الوَلايـة والوِلايـة متلازمتـان دائمـا وأن الثمـرات والنتـائج الكبيـرة الظـاهرة والخفية، هي حصيلة هذا التلازم والمواكبة.

ولا يمكن إبداء المحبة لأحد ما، والإمتثال لأمر شخص آخر في الوقت ذاته. إن هذا الإنفصال، هو مقدمة الفساد والضياع، لكن إن تم قلب هذه العلاقة عكسيا، فان وجهـا اخـر مـن الضـياع سـيبرز، أي عنـدما يتحـول الميـل نحـو التملـك والتصـرف والحكم الباطن، مظهرا وظاهرا للمحبة والصداقة.

وفي الحكم الرشيد لائمة الدين(ع) فان الواية الباطنة هي ولايتهم وحكمهم لعامة الناس، لذلك فان كل ما يصدر في هذا الإتجاه، هو لطف ورحمة ويهدي للنور. كما ورد في «آية الكرسي»: «اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ».

إن الوِلاية المطلقة لله تعالى وبتبعها وِلاية رسول الله(ص) وأئمة الدين(ع) تفضي بالضرورة إلى النور وتؤدي إلى الخلاص من الظلمات، لان هذه الوِلايـة قائمـة علـى بـاطن الوَلايـة والمحبـة، إلا أن بـاطن الحكـم غيـر الصـالح وهيمنتـه علـى مقـدرات الانسـان، هـو تجسيد للحكم والتسلط والهيمنـة والإنجـرار وراء السلطة والإستيلاء والقوة والجور. ويقول الشاعر الايراني حافظ الشيرازي:

إن كلام الحكام، هو ظلمة الليلة الليلاء

وابحث عن النور لدى الشمس حين تطلع

إن الحكم والسلطة، هما عين الظلمة ومصدر العتمة إن لم يستندا إلى الوَلاية. ولذلك فان الامبريالية هي النتيجة النهائية للأنظمة والحكومات في العصر الحاضر.

إن الإستئسـاد والغطرسـة اللتـين تمارسـهما الامبرياليـة، همـا النتيجـة الحتميـة للحكومات الغربية، لان هذا النظام هو نظام سلطوي بحد ذاته وان غطرسته وسلطته ناتجة عن الإبتعاد عن الوَلاية.

وللمرحوم فريد كلام بديع حول الامبريالية حين يقول:

إن الامبريالية تستهلك الانسان كمادة خام كما وأنظمة الحكم الحالية هي كذلك. إن الامبريالية الامريكية تستهلك اليوم شعوب العالم وأن السيناتورات يستهلكون أحدهم الاخر. بل أن الجميع يستهلك أحدهم الاخر أصلا، لان الوَلاية قد زالت. وفي التاريخ المعاصر، ثمة إصرار على مناصبة الوِلاية العداء، إن البشرية المعاصرة، تعارض هذه النزعة نحو الوَلاية، إنها لا تريد الباطن ولا تريد الشرق ولا العالم الثالث ... .[1]

وفي جميع الحكومات والإيديولوجيات التي ابتدعتها البشرية، فان الانسان، يباع ويشترى كسلعة وذلك بسبب إتباع النفس الأمارة الشمولية أكان ذلك في الأنظمة القائمة على الإشتراكية أو الرأسمالية، ويوضع هذا الانسان في خدمة رأس المال والسلطة من دون الأخذ بعين الإعتبار شأنه الالهي وضرورة انبثاق مواهبه، ويتم تداوله وتقييمه وتصنيفه تأسيسا على معايير ومؤشرات كمية واقتصادية.

ووفقا لهذه المعايير، تم تصنيف الشعوب إلى ثلاث فئات هي: المتقدمة والنامية وغير المتقدمة. وقد قبل سكان هذه البلدان هذا التصنيف، ويمنحون كل ما لديهم من أجل الخروج من تصنيف الشعوب غير المتقدمة، فهم يهبون رساميلهم وينحرون ثقافتهم التقليدية والدينية ويضحون بالانسانية، لكي يُحكم عليهم وفقا لمؤشر التنمية الاقتصادية. ولذلك فان مجمل انظمة الحكم التي تسود البلدان الشرقية والاسلامية والتي تبحث عن التنمية الاقتصادية، تفتك بالانسان بواسطة الأذرع القوية للتنمية الثقافية علها تكون مقبولة لدى حكام ومنظمات الهيمنة العالمية والغربية.

---

۱. اللقاء الفذ و فتوحات آخرالزمان، ص ۵۵.

وأليس أن الشعوب تدور اليوم كالفراشة حول الثقافة والمدنية الغربية، وتتخلى عن جميع مصادرها ورساميلها الثقافية والمادية؟!

وأليس أن البلدان الاسلامية تتسابق مع بعضها البعض علها تكون مقبولة لدى الاتحادات والمنظمات الدولية؟!

وأليس أن زعماء وقادة هذه البلدان، يوقعون أي معاهدة واتفاقية لكي تنظر اليهم اليونسكو وصندوق النقد الدولي والبنك العالمي بنظرة لطف وحنان؟!

وأليس أن الجميع أصبحوا يكنون الحب والولاء للغرب، ويرضخون من هذا المنطلق لوِلايته وسلطته الثقافية والاقتصادية والسياسية؟!

وفي هذا الخضم، فان اليهودية الضالة والدنيوية النزعة والفاقدة للتوجه المعنوي والعرفاني تجاه العالم، تحولت إلى مقوم وداعم ومؤازر لنظام الهيمنة ومثبت ورافد لأركانه السياسية والاقتصادية والثقافية.

والمسلمون من سكان البلدان العربية، غير قادرين على فعل شئ. فهم شأنهم شأن سائر الشعوب والأمم غير الغربية، باتوا يفتقدون لعنصر المواجهة الجادة مع الغرب وطرح السؤال الجاد عليه. إن الدنيوية والمذهب الانساني والمذهب التجريبي والمذهب العقلي دفعت بالانسان الغربي وبتبعه الشرقيون المنبهرون بالغرب، إلى رسم صورة عن العالم والانسان تحولت فيما بعد إلى مصدر ومنشأ لكل الأزمات. كما أن مواجهة هذا المارد العملاق رهن بالمساهمة واحياء دين بوصفه دينا متكاملا ومبنيا على الإنطباعات الخالصة عن الوجود وإمكانية إعداد وتنشئة أناس مجاهدين ومتدينين ويتميزون بالحكمة والحصافة.

إن هذه المجاهدة، تستدعي وتستحضر مجمل جسم المجاهد وروحه وذهنه ولسانه.

ولِاية الحق، ترحيب بتاريخ الغد

لقد أصبحت العلوم الانسانية والاداب اليوم في خدمة ثقافة الهيمنة، وبات الجاه وحب الدنيا ـ الذي هو رأس كل خطيئة ـ الوجهة النهائية للانسان وتحولت الأدبيات السائدة في خدمة هذا الأدب النفساني والشيطاني.

واسمحوا لي القول، أن المذهب الانساني يشكل روح وجوهر العلوم الانسانية وأن الماسونية هي صورتها.

إن هذه العلوم الانسانية الحديثة، تفسر القرآن وجميع المفاهيم الدينية والوحيانية بالعقل الغربي. وحسب الأستاذ المغفور أحمد فريد:

> **إن العلوم الانسانية، تأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف. إن هذه العلوم الانسانية، مؤشر على مرض البشرية، فالبشرية، أصبحت اليوم تنتبه إلى أن هذه العلوم، تتولى الذود عن مرض البشرية. لكن لا يمكن علاج أوجاع الانسان بالمهدئات.**[1]

الكل يريد العولمة. ويبحث عن الثقافة العالمية والاقتصاد العالمي والأدبيات والموسيقى العالمية ونظام الهيمنة العالمي. كما أن المدارس والجامعات، تربي الشبان على تقبل مرض العولمة.

---

١. المصدر السابق، ص ١٥٠.

الكل يبحث عن السلطة. وتحولت العلوم الانسانية إلى عامل مبرر ومفسر للوضع القائم وتجعل الجميع تابعا للسلطة ولاهثا وراءها.

إن مفردة العولمة، تحمل في طياتها معنى التحول إلى هذا العالم (الإقلاع عن عالم المعنى)، وكذلك مجمل مفهوم الإنغماس في الثقافة الغربية وقبول نظام الهيمنة، وان تم نبذها في الظاهر، فانها ستفضي إليه في الباطن، لان شرط التحول إلى هذا العالم هو قبول الثقافة الغربية وبتبعه استراتيجيتها وسياستها واقتصادها. إن شرط العولمة، هو خلع لباس المعنى والمعنوية والدين من الجسم والروح. ومواجهة هذا التيار القائم والسائد، ليس بالأمر السهل، والغرب المسيحي غير قادر على خوض هذه المواجهة كما أن الشرق البوذي والبرهمائي العلماني والدنيوي والفارغ من الروح الثورية والجهادية، غير قادر على ذلك، لانه يفتقد إلى العنصر الجاد للمواجهة، أو أنه على أقل تقدير لا يملك تعريفا لوجود الانسان وحياته في هكذا عصر ووضع.

إن بعض الثقافات الشرقية تتهجم على وجه من هذا الغول في مواجهتها للغرب وتقر بتفوق العالم المعنوي على العالم المادي وترى أن العالم يتصف بطبيعة سماوية وقدسية، لكنها عجزت عن تقديم منظومة تكون قادرة على طرح السؤال على الغرب واختراق ساحاته المختلفة.

وفي هذا المجال، فان الإسلام هو الدين الوحيد الذي يتحدث عن انتظار المنقذ الموعود والتجارب العرفانية والأخلاقية الفردية لتهذيب النفس والمراقبة، وينادي بالحياة والإقامة في العالم الديني وفي عصر غيبة المعصوم والولي المنتخب والمنصب من حضرة الحق، ويسعى المسلمون جاهدون لاقتباس نموذج حكم النبي

الأكرم(ص) وسيرة وسنة وكلام رسول الله(ص) وأوصيائه لبناء عالم ديني وحضارة اسلامي.

إن هذا الكلام ليس زعم يفتقد إلى السند النظري والثقافي القابل للتحديد، بل أن استمرار حياة وحقبة فاعلية هذا الدين وشمولية الأوامر والنواهي الواردة في المصادر الدينية والتي تغطي مجمل التعاملات والعلاقات الفردية والجماعية للناس، تؤيد هذا الكلام وتؤكد عليه.

وفي آخر سنة من حياة النبي الأكرم(ص)، فانه صلى الله عليه وآله وسلم أكد على تراثين كبيرين هما القرآن والعترة، ونبه المسلمين إلى الإمكانية والقوة الكامنة في هذين التراثين. والتراث الثاني أي العترة، كان ذلك العنصر القوي والمتنامي الذي حال دون الوصول إلى مأزق وانفعال في وقت مواجهة المسلمين للتطورات الثقافية و الحضارية، وكان يعتبر أن السبيل للخروج من المآزق يتمثل في الرجوع إلى مصادر الإجتهاد والمستندة إلى كتاب الله وسيرة وسنة رسول الله(ص) والعقل المستند إلى الوحي.

وأهم وجه بارز لحكم وسياسة النبي الأكرم(ص) ومن بعده علي(ع) الوصي والإمام المنصوب، كان مبنيا على الوَلاية. وهذا الأمر أدى إلى أن يقيم النبي(ص) حكما حقيقيا لان هذا الحكم يحصل عندما تشكل الوَلاية باطن الوِلاية والحكم.

وفي مسألة وِلاية الأئمة المعصومين(ع)، فان قضية الوصاية والحكم، هي خاصة باهل بيت رسول الله(ص) باذن الله، في حين أن الوَلاية والمحبة، هما باطن هذه الوِلاية والوصاية. وللأسف فان غاصبي وِلاية وخلافة ائمة الدين، حرفوا هذا الأمر من دون إذن من الله ومن دون أن يملكوا مقومات هذه الوِلاية، وأدى هذا

الإنحراف إلى إيجاد هوة سحيقة واعقبتها أزمة واضطراب اجتاح مجمل حياة المسلمين. وفيما يخص خلافة وحكم الصالحين الذين اجتباهم الله، فان الوِلاية والوَلاية مجتمعان معا، لانهم ومن خلال ابتعادهم عن أي دعوى وادعاء والنأي بانفسهم عن أي أنانية، استسلموا لارادة الله وكانوا بصدد تحرير الانسان من أي ولاية ملطخة بالشرك وغير حقيقية، وجعله جاهزا لتجاوز الساحات المتدنية والإرتقاء إلى الدرجات السامية للعبودية.

وواضح أن العنصر الضروري للعبودية، يكمن في فك أنواع قيود الشرك والنفاق عن الأيدي والأرجل ومغادرة أي طغيان وعصيان. ومن هنا فان باطن وِلاية وخلافة الحجج الإلهيين، هو الوَلاية والعبودية البحتة. إن انتظار ظهور امام العصر(ع) يغطي هذه الرؤية والنظرة. إن صاحب العصر والزمان(ع) هو صاحب الوِلاية المطلقة والتامة، وبناء على هذا الشأن والمقام، فان الوِلاية هي له وتشكل باطن حكمه وخلافته. ويقول الأستاذ أحمد فرديد:

إن الوِلاية والوَلاية متلازمتان، لكن ما هو سائد فى عالم اليوم، هو الوِلاية ولا أثر عن الوَلاية.[١]

إن التاريخ الغربي المعاصر الذي وصل الآن إلى نهايته، إستولى على مجمل الوِلاية في ظل استبداد بحت. إن الإستيلاء والسلطوية (الأنانية التامة) هو ديدن الإستعمار والإمبريالية وشمولية الثقافة والحضارة الغربية، ولذلك فان كل ما نتج عن هذا التاريخ، يتسم بلون ورائحة وصبغة استبدادية ومتأزمة. عتمة بعد عتمة وعصيان بعد عصيان وإمارة النفس الأمارة المنقطعة عن السماء بدلا من وِلاية

١. المصدر السابق، ص ٥٢.

وإمارة الله سبحانه وتعالى والمنتجبين من آل بيت النبوة والإمامة. لذلك، نرى أن السؤال من الغرب هو خاص بالشيعة وواجب جاد يقع على عاتقهم.

إن المهدي الموعود هو مظهر أسماء وصفات الله الرحمن الرحيم الذي تعد وِلايته عين الخروج من الظلمات والدخول إلى النور، بينما الغرب هو مظهر الشيطان ووِلايته هي عين الخروج من النور والدخول إلى الظلمات.

إن الحديث عن امام العصر والزمان(ع) وانتظار ظهوره المقدس، هو حديث عن تاريخ الغد والتبري من تاريخ الغرب الحافل بالتبرّي.

إن الثورة الحقيقية نابعة من الظهور التام لوِلاية امام العصر(ع) وانتظار وقوع خلافته ووِلايته التامة، والمجاهد في هذا الطريق، هو المنتظر الذي حدثت هذه الثورة في نفسه وهو ينطلق لإعداد المقدمات والتحضيرات ليجهز ويحضر نفسه لاستقبال تاريخ الغد ألا وهو إمامة الإمام المبين وتحقق خلافته.

إن الذين يتحدثون عن إمامة وولاية المهدي(ع)، لكن ثورة لم تحدث في قرارة أنفسهم، يتقبلون ولاية الغرب من دون أن يريدوا أو يعلموا، وبالضبط فان ناقد الثقافة والحضارة الغربية، لابد له أن تطأ قدماه عتبة الولاية التامة لإمام الزمان(ع).

إن أي جد وجهد يسهمان في بقاء وديمومة وَلاية ووِلاية الإستكبار الغربي في شتى الساحات والميادين، يؤديان إلى اندلاع الأزمات والتبرّي، حتى إن حدثا تحت مسمى الدين والله.

إن التكليف الكبير في العصر الحاضر، هو الإعلان الحميمي والملتزم للمحبة والوَلاية لعتبة امام الزمان(ع) والعمل على طلبه والبحث عنه والجهوزية للدخول إلى منطقة ولايته الشاسعة. إن الدخول إلى مجرة وِلاية حضرة صاحب الزمان(ع)

هو عين الدخول إلى العالم الديني وأن السؤال من الغرب هو مجرى للخروج من العالم الغربي وتجاوز مائتي عام من الإنبهار بالغرب والإنفعال المضاعف الذي أصيب به الشرق الاسلامي في الساحات الثقافية والمادية.

الأدب الدينى فى الظل

ويجب القول للأسف أننا مازلنا نقف عند الدرجة الأولى لسلم السؤال، وهذا الوضع يشير إلى تداوم تيار الإستغراب المضاعف والمتجذر الذي يسود جل علاقاتنا المادية والثقافية. كما أن الأزمات الجارية التي تعصف بمجمل العلاقات والتعاملات الفردية والجماعية للمسلمين وتبرز أحيانا على هيئة طرق مسدودة وعقبات كأداء، تؤكد ذلك.

وقد أشرنا مرارا إلى أن ثورتين جادتين وقعتا خلال الأعوام الأربعمائة الأخيرة في العالم. الأولى متعلقة بالغرب، أي الثورة الفرنسية التي تبلورت ونشأت بعد مرورها بسلسلة مراحل طويلة في الفترة ما بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر للميلاد وبالتالي عصر النهضة واستحدثت الثقافة والحضارة الغربية وبسطت مظاهرها في العالم، والثانية هي الثورة الإسلامية في ايران والتي مرت في منتصف الطريق بتحديات مختلفة. وأهم تحديات هذه الثورة، ناجمة عن تلاقيها مع الغرب. إن الثورة الثانية كانت تحمل في طياتها ضربا من الأصولية وكان توجهها نحو عالم الغيب وغيب العالم الذي كان قادرا ومايزال على إبداع عالم حديث يتيح المجال للخروج من العالم الغربي.

وهذا التوجه جليّ في شعارات ومطالب الثوريين الذين يتوخون دائما نيل الإستقلال الثقافي، وكان بوسع الثورة الثقافية إغلاق الطريق على أي إصلاح سطحي لأهل الغفلة والمنسلخين عن الذات.

إن مجمل علاقاتنا وتعاملاتنا الثقافية والمادية اليومية، تظهر وجود نوع من التعلق والولاء والولع بالثقافة والحضارة الغربية الحديثة، وهذا أدى إلى تداوم وِلاية وسلطة القانون والأسلوب والسلوك والثقافة الغربية أكان سافرا أو خفيا، علينا وعلى علاقاتنا.

إن التغير الثقافي، هو شرط للتخلص من وَلاية ووِلاية طاغوت الغرب. ولا يخفى بان الوصول إلى ذلك، لايمكن من دون السؤال من الغرب، كما أن إعادة تأهيل الحياة الدينية رهن بهذا السؤال.

وقد أصرينا خلال هذه الأعوام على إحياء أوجه الحضارة الاسلامية وتكريمها في إطار الملتقيات والمؤتمرات الداخلية والدولية، وقمنا من خلال تجاهل مفهوم الثورة وإعادة تأهيل الحياة الثقافية، ببسط الأوجه التاريخية للثقافة والحضارة الغربية في العلاقات الفردية والجماعية، لا بل ومع إثارة موضوعات مثل عصرنة الدين والتنمية الثقافية والتنمية الإقتصادية وبسط الحداثة والعصرنة و... وفرنا بذلك وأكثر من أي وقت مضى مجالات وفرص توطيد الرؤية الغربية والبنى النظرية لمفكري القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد لدى الجيل الصاعد.

وواضح أنه:

عندما نصر على الوجود والعيش في العالم الغربي وتجربة جميع العلاقات الخاصة بالحداثة والعصرنة، لا يمكن لنا أن نعقد الأمل على تنشئة انسان مسلم ومتأدب بالأدب الديني.

وعندما لا نسأل عما سكبناه بالجملة في وعاء العلاقات الثقافية والمدنية للعصر الحاضر ولا نتحدث عما هو ضروري لهذا الأمر، لا يمكن لنا ولا يجب أن نتوقع ظهور وبروز الأدب الديني في علاقات الناس. ويقول المثل: الإناء ينضح بما فيه.

ونجعل الأمر يشبّه علينا أحيانا ونعتبر إحياء بعض الأوجه الثقافية التقليدية والاسلامية التي تفقد بريقها في خضم جلبة صورة وسيرة الثقافة والحضارة الغربية، على أنه الخروج من العالم الغربي وتحقق الوجه المهم والجاد للثورة الدينية، من دون أن نوفر إمكانية وفرصة طرح هذه التساؤلات:

- **منذ متى تلوثت وتلطخت الساحات المختلفة للحياة الثقافية للمجتمعات الشرقية والاسلامية؟؛**
- **إلى أي طبقة من حياتهم الثقافية توغل المرض؟؛**
- **أي طبيب معالج، قادر على طرد المرض وإعادة تاهيل المريض؟؛**
- **و...**

ورغم أن طبيعة هذه التساؤلات، موحدة على مدى قرنين، أي صدر المشروطة، حيث توغل مرض الإنبهار بالغرب وحتى العقد الثاني من القرن الخامش عشر للهجرة، أي العصر الحاضر، لكن يمكن في سائر الأوجه، أي عمق واتساع نطاق هذا المرض المزمن، وضع ردود متفاوتة بتصرف السائل.

ولقد اتضح اليوم الإنفعال الناتج عن التقاعس والتلكؤ والغفلة والنقص المستمر على مدى مائتي عام على هيئة نوع من الإرهاق والتعب من الشعارات وابداء الرغبة في العودة مجددا إلى بعض الأوجه التاريخية الماضية (قبل الثورة) بين الجماهير وعلاقاتهم، بحيث أنه يمكن مشاهدة «التَعَرُّبَ بَعدَ الهِجرَةِ» هذا جيدا في هيكلية النظام التعليمي والمعماري وتخطيط المدن وحتى السياسة والاقتصاد في البلاد.

إن التطور المتواصل للعلوم الانسانية الغربية، بالتزامن مع تطوير الكراسي الجامعية في أرجاء الشرق الاسلامي، وتنمية الإنطباعات علم الاجتماعية وعلم النفسية في الدراسات الاجتماعية والتخطيط التربوي وتفوق العلوم الكمية ومكاسبها في التخطيط العام وادارة المؤسسات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تأسيسا عليها وبالتالي ولع المؤسسات الإدارية والاجتماعية في إذكاء نزعة حصول الشهادات الجامعية والقبول بحرص بالحداثة، يظهر وضعنا الحالي بشكل جيد، ويشاهد ويسمع هنا وهناك إبداء الرغبة للورود في سياسات العولمة وقبول جميع قوانيها ومقرراتها.

ويجب القبول بان ما يميز النهضة الاسلامية في ايران عن سائر الحركات خلال القرن أو القرنين الأخيرين ينعكس في توجهها في محاربة الكفر. ومصاديق محاربة الكفر هذه تتجلى أكثر في مواجهة واضعي السياسات المعاصرة في امريكا والغرب، لكن لا يخفى بان كل مصاديق الكفر والشرك والنفاق لا تبرز في هيئة القائمين على الشؤون السياسية وواضعي السياسات الغربية وأدائهم، وإن كانت طبيعة هذه النهضة هي محاربة الكفر ومقارعة الإستكبار، فان من الضروري إعطاء تعريف شامل عن التيار الغربي المناهض لله والمعادي للانسان بطبيعته السلطوية في العالم المعاصر.

إن الإستكبار اتسم طوال حياته باوجه وظواهر مختلفة مع حفاظه دائما على طبيعته وجوهره الرئيسيين، لكن وبعد فترة، أعطت تلك الأوجه والصور في ظل تغير وتحول، مكانها لأوجه وصور جديدة، وتكاثرت وتوالدت بهذه الطريقة مع الحفاظ على الطبيعة الرئيسية. إن هذا التكاثر والتوالد، حمى الإستكبار ووفر له ملاذا ومأمنا ومهد لانتشاره وبقائه متخفيا.

وبعد عصر النهضة، ظهرت الطبيعة المعقدة والغامضة للإستكبار في هيئة المذهب الانساني، وتحولت بعد انتشارها في المجتمعات الغربية واكتساب القاعدة الشعبية، إلى طبيعة للأوجه الإستكبارية المتمثلة في الإستعمار والامبريالية والشيوعية والليبرالية وما شابهها.

واتسم الإستعمار في مسار توغله ونفوذه في المجتمعات الشرقية، بوجه حضاري، فيما دخلت الإمبريالية في قالب السياسة. واتصفت الشيوعية بظاهر تحرري واستعرضت الليبرالية عضلاتها في هيئة الفكر الحر. ومع استمرار عملية التبدل والتبديل في المادة والصورة، فان اضطرابا طرأ على مجمل السياسة والاقتصاد والشؤون الاجتماعية للأمم الشرقية والغربية، واستولى الإستكبار بكل ما يملك من امكانات وملزومات تمكنه من نهب العالم، على كل مقدورات ومقدرات الانسان الجلية والخفية. ومن هنا فان التعرف على مادة الفساد هذه وكيفية ظهورها في العصر الحاضر، يشكل الشرط الرئيسي والأولي لمقارعة الإستكبار وخوض النضال واتخاذ القرار لحاضر ومستقبل المجتمعات الشرقية والاسلامية.

إن مصداق الشرك والإلحاد في عصرنا، ليس اللات والعُزّى وهُبل ولا نمرود وفرعون، وإن لم يتحصل درك صحيح عن مفهوم الإستكبار وأوجهه الجديدة في العصر الحاضر، فان أي نضال، سيكون نضالا أعمى أو طويل ومحفوف بالخسائر على أقل تقدير. إن معرفة كيفية ظهور هذه المفاهيم في القرنين التاسع عشر والعشرين، رهن بمعرفة سير تحول الإستكبار خلال القرون الأخيرة.

وفيما يخص كيفية ظهور وانتفاضة الإمام المهدي(ع) وردتنا روايات كثيرة، تقول أنه عليه السلام إمام منتجب يحمل مواريث الأنبياء. الرجل الذي يحمل معه

عصا موسى ونفس المسيح وخاتم سليمان ويأتي معه ب«التوراة» و «الإنجيل» و «القرآن» ليحكم به.

ويحمل في يده «ذو الفقار» علي(ع) ويرتدي رداء محمّد(ص) ودرعه، ويركب فرسا ويحكم بين الناس كداود(ع). فما معنى كل هذا؟

وكأن الشرك والإلحاد والكفر يظهر في أعقد صوره، وأكمل وضع وأكثر إمكانات في عصره عليه السلام، وبعدة أوجه ومتداخل من الصعوبة بمكان الرسوخ اليه والتوغل فيه واختراقه والقضاء عليه من دون التمتع باعجاز سائر الأنبياء وعلم وسلطان الأولياء والأوصياء الماضين. إن تعقيد الإستكبار وكونه متعدد الأوجه في العصر الحاضر، يعقبه بالضرورة تعقيد مكافحته وكونها متعددة الأوجه.

إن الكثير من القرائن والشواهد، تدل على أننا نمر بعصر، سيتواصل بالضرورة مع عصر الظهور بعد تجاوز آخر الزمان. وهذا التزامن مع آخر سنوات الحياة المعقدة ومتعددة الأوجه للإستكبار، يضطرنا للتعرف على الأوجه المختلفة للعصيان والشرك. تيار مفسد ومعاد لله، ومدعوم من الشيطان يستهدف مجمل العبودية، وهذا التعرف، يشكل مقدمة في حد ذاته من أجل التبرّي.

إن التبرّي لا يقتصر على القول واطلاق الشعارات، لان هذا يشكل ضربا من خداع الذات، ولن يتسبب بواقع ميمون. حيلة من نوع ذلك التيار المفسد والمعادي لله.

إن تجاوز العهد المذموم الذي لا يُرضي الله تعالى، والولوج إلى العهد الممدوح والمُرضي، ممكن من خلال التبرّي من العهد السابق، لا إطلاق الشعارات كما أن التبرّي مُلزم ويأتي بتعهد والتزام و بالأحرى،

فان الحقيقة تتطلب تضحيات.

السابقون و انفصال العوالم

ومن يستطيع اليوم الإدعاء باحياء التقاليد الشرقية والعودة إلى الهوية الثقافية الدينية؟ وما النسبة القائمة بين المدعي وتلك الهوية والتقليد المنشود؟ وهذا الكلام لا يعني، أن المدعي لا يحب التقاليد أو ألا يتفاخر بها، وبالمناسبة فانه يتم بين الفينة والفينة رفع علم التفاخر على المتاحف ومؤسسات التراث الثقافي وإقامة مجالس وملتقيات تكريم التقاليد السابقة والآثار المتبقة عن العصور السالفة، لكن كل هذا لا يعني ما نطلق عليه اسم التناسب والإشتراك في اللغة والإشتراك في العالم.

إن تكريم الذكرى وحفظ المواريث والأوجه الحضارية الماضية وحماية أوجه وأشكال اداب المتقدمين، هو أمر ممدوح ومستساغ ويستحق التقدير، لكن هذا ليس بمعنى الإشتراك في اللغة واللسان. وكما أننا نحتفظ في متاحفنا بمخطوطات القدماء ونجعل من الأواني الخزفية وسيلة لتزيين غرفنا ونزور المقاهي التقليدية الفولكلورية القديمة لاحياء الماضي ونستمتع بالموسيقى التراثية ونتناول المأكولات التقليدية، لكننا لا نشترك مع الماضين في العالم والأفق.

إن التقاليد الثقافية والآداب والسنن المقدسة والشعائر والطقوس الدينية الشرقية وكل ما هو سارٍ وجارٍ في النصوص والأعمال الأدبية الماضية، تترجم وتجسد

انسانا وعالما نتأسف لفقدانهما اليوم ونسعى أحيانا من خلال احياء صورة الآداب والتقاليد والأعمال لإقناع أنفسنا باننا نعيش مع القدامى وتقاليدهم في عالم مشترك. أو أننا نشترك معهم في اللغة واللسان والقلب، وعندما لا يكرم ابناؤنا صورة الأعمال، نشكو ونتحدث بتحسر وتخوف من أن يسقطوا في براثن نوع من اللامبالاة وعدم الإكتراث ونبحث عن سبب ابتعاد الجيل الشاب عن التقاليد الدينية ونقيم ملتقيات وندوات لتحديد الثغرات والعوار، ونضع بالتالي مجموعة من المواد والملاحق على هيئة قوانين ومقررات جافة، ونفرضها على المربين والمعلمين ونجلس بانتظار إزهارها وإثمارها.

إن الهوة والشرخ الحادث بيننا وبين الحقبة الماضية، هو الشرخ القائم بين العوالم والهوة القائمة بين أفق الرؤى. ولِمَ نتصور بان القطعية مع الماضي والتقاليد السالفة تحدث من جراء التخلي مثلا عن المقاهي التراثية ورياضة الزورخانة أو الغرف ذي خمسة أبواب والأحواض المكسوة بالبلاط ومزهريات الشمعدان وأمثال ذلك؟

ويصف المغفور له الدكتور محمّد مددبور، وضعنا إزاء الغرب باسلوب جميل حين يقول:

إن توجهنا النظرى الرسمى فى مكافحة الغرب تمثل لحد الان فى ذلك الفكر الغربى المترجم والمألوف وأحيانا المواقف اليسارية والتيارات النقدية الغربية مع غلبة الفكر السياسى، وهذا بمثابة سد فى علاقتنا مع العالم وان التقدير الغربى قائم على استهلاكنا كمادة لصورة وروح ثقافته. إننا نمر الان بوضع يتمثل فى النضال السياسى المنادى بالاستقلال ضد الغرب، لكن مطلبنا وتمنياتنا هى قبول منظومة التكنيک والتنمية الصناعية

والعلمية والميل نحو الصناعة والعلم الحديث بطريقة انفعالية لا يسودها التصرف.

ورؤية الإمام فى اكتساب الصناعة، هى على نقيض من رؤية الكوريين واليابانيين والصينيين وباقى الاسيويين، وكان الهدف هو طلب التصرف والغرب بعد التصرف المنشود، أى المصادرة المطلوبة، بقوة الحكمة الإيمانية لا الهدم والنبذ والحذف أو الترك واختيار العزلة تجاه تكنولوجيا العالم. وفى هذه المرتبة، فان تعلقاتنا وايماننا الدينى يمكن لهما ان يجهزاننا ويعززاننا للولوج إلى ميدان الحداثة والعصرنة، وألا نقلق من التعامل مع هذا النظام الواقع تحت سيطرة التكنيک، وحتى أن ننظر إلى التكنيک كشئ وأداة تخرج من مظهرها التاريخى ولنا سلطة وولاية عليها، لان أن يكون لها علينا سلطان. لكن المشكلة فى الإقامة فى عالم الحداثة هى أنه كلما تقدم هذا العالم فان الإيمان يفقد بريقه، لدرجة يوصل الانسان إلى مرحلة الإنفعال ولم نستطع لحد الان إيجاد منصة لكى لا نكون أسرى بيد التكنولوجيا... فان استمرت هذه الثورة الدينية، فانه كان يتم تصرف الأجواء المدنية والمعمارية والفن والعلم واللباس والسلوكيات الاجتماعية، والتقرب إلى الدين، لكن عمليا، فان التقدير الغربى ونظام التكنيک واخذ التكنولوجيا، من دون التصرف، قوى لدرجة أنه يجرف كالسيل كل شئ نحو الحداثة.[1]

---

١. المصدر السابق، صص ٥٠٤ ـ ٥٠٥.

وقبل أن تصاب المعمارية وبناء المدن ولباس الناس، بالعريّ، فان الجماهير أصيبت بنوع من العريّ الثقافي، وإلا فانه لم يكن بالإمكان اطلاقا إسكانها في بيوت ذات معمارية حديثة لكنها عارية.

وفي ضوء كل ما لا يسع المجال لهذا المقال تناوله، فان إنسان العصر الحديث، هو إنسان اخر يسير في عالم متفاوت يختلف عن الماضي. إن التجدد والحداثة أدخلاه عالما حديثا ومن سار في هذا العالم واستأنس به، فانه لا يجد إشتراكا في اللسان مع السابقين والمتقدمين.

إن انسان اليوم وعلى النقيض من انسان الماضي، وقبل أن يكون بصدد الكشف عن سر الوجود وتجاوز الصورة المادية والظاهرة للعالم، ويريد درك المعنى الباطن والحقيقي للصيرورة والمجئ والذهاب أو أن يشغله سؤال كبير وحيرة معمقة في وقت مواجهة عظمة الكون وخالق الكون، فهو متورط بالقلق الناجم عن الهواجس. لذلك فان السر المختوم تنزل بالنسبة لهذا الإنسان إلى حد الروتين اليومي. إنه يرى أن كل شئ في هذا العالم، يشكل مسألة وقضية، يكمن حلها ومعالجتها في العلم التجريبي الحديث. بحيث أن الحيرة في وقت مواجهة عظمة الكون وخالق الكون، تحولت إلى عُجب وهو الإغترار العفن الذي جعله مُعجبا بحيث تخلى عن عبادة الله ولا يرى أن هناك من هو أفضل منه في هذا العالم.

إن التعطش لمعرفة السر، يدفع الانسان الشرقي إلى وادي الطلب حتى يتمكن من خلال تجاوز الأنانية (التوبة) من توفير إمكانية إيجاد معرفة تمكنه من إقامة علاقة مع أهل السر والسر ذاته. إن الطلب والتوبة والمعرفة والسير من الظاهر إلى الباطن، ضروري للسير في عالم الأنس والإستئناس مع أهل السر وإن تجاوز الذات والإقلاع عن الهواجس، ضروري لقبوله عند عتبة العشق الجليلة.

إن التغير في الرؤى، أزال كل الإشتراك في اللغة واللسان بين الجيل الحالي والجيل الماضي، وكأن الجيلين الحالي والماضي، ينتمي كل منهما إلى كوكب منفصل ويعيشان في عالمين مختلفين. وقد تغير لسانهما ولغتهما واكتسبت الألفاظ معان جديدة، رغم أنهما يعيشان في جغرافيا ترابية واحدة ومشتركان في الظاهر في الألفباء وصورة الكتابة.

وعندما أصبح الإستعجال والتسرع مرافقا حميميا للهاجس والخلجة المعاصرين، زالت جميع فرص التأمل والتدبر والتفكير حول المخلوقات والعالم اللا متناهي. ولم تعد المخلوقات بالنسبة للانسان علامة وارهاصة لدرك وفهم جمال وجلال خالق الكون والوجود، بل أن مجمل المخلوقات تحولت إلى أشياء للتصرف والإستهلاك، والتي تم التصرف بها بارادة تامة من الانسان.

إن التدبر والتفكير في الكون، بحاجة إلى خلوة وصبر وتأن، لا مجادلة ونقاش. إن العجلة والتسرع يظهران للانسان طبقة وسطحا من الكون فحسب.

وثمة هوة مذهلة بين درك وفهم مسافر، يستقل بتسرع طائرة أو قطارا سريعا، يمر عبر الجبال والسهول والصحارى والغابات، وبين انسان يعبر بتأن وصبر وخطوة فخطوة الأنهر والغابات. فهذان الإثنان يختلف دركهما تجاه ما يشاهدان.

واليوم وبسبب التسرع والعجلة، لا يكسب الإنسان شيئا سوى الطبقة السطحية للكون. والملفت أن الانسان العصري يجعل هذا المقدار من دركه للعالم، معيارا ومقياسا للتشخيص والحكم واتخاذ القرار النهائي حول الكون والوجود، من دون أن يعي أن هذا الانطباع هو أبسط الإنطباعات واكثرها سطحية وضحالة عن الأرض

ناهيك عن درك منظومة الكون الكبرى التي تضم جميع المجرات والكواكب والنجوم في العالم الدنيا والعالم المحسوس فقط.

إن من يحمل انطباعا بهذه الدرجة عن الكون، لن يكون قادرا على الإطلاق على التناغم والإشتراك في اللغة واللسان مع الانسان الذي يسير في عالم آخر وينظر إلى الكون بنظرة مختلفة. إن هذين الإثنين ينظران إلى الكون بنظرة متفاوتة ويعبران عن إنطباعاتهما بلغتين مختلفتين، حتى إن كانا ينطقان مثلا باللغة الفارسية. بحيث أن الجيل الحالي لا ينتفع من كل تلك الأعمال الثقافية الضخمة المنثورة والمنظومة للأجيال السابقة، ولن يكسب منها شيئا سوى منفعة طفيفة. وثمة شئ يحول دون التناغم والإشتراك في اللغة واللسان والحوار بين هذين الإثنين، لذلك فان هذه الأعمال الثقافية وبكل ما تملك من ثراء وغنى، يتم تكريمها باعتبارها تراثا ثقافيا فحسب، كما يتم تقييمها كمؤشر على الحضارات والثقافات الممسوخة لكي تتضح نسبة تخلفها عن الجيل الحالي.

إن كتب حكماء الشرق ودواوين الشعراء الكبار وسائر أعمال المثقفين و المفكرين، تمثل خلاصة عن انطباعاتهم عن العالم الذي كانوا يسيرون فيه. و علامة على تناغمهم اللساني مع العالم الشرقي الشاعري، في حين أننا لا نقيم تناغما و تواصلا لسانيا مع ذلك العالم، كما أننا لا نشترك في الأفق مع خالق تلك الأعمال كما لا نشترك معهم في نفس العالم. ونريد ونقبل كل هذا إلى الحد الذي يؤيدنا و يؤازرنا، ويتحول في خدمتنا، ونعتز بها ونكدس كنوزنا لنزيد من حجم رساميلنا.

وقد دمرت كل هذه الآثار القديمة والتراث الحضاري والثقافي في افغانستان والعراق ومناطق اخرى خلال السنوات الأخيرة. وعندما كان يتم الإحتفاظ بهذه

الآثار في متاحفهم، أي مشكلة تمت معالجتها لسكان وشعوب البلدان الاسلامية الكبرى؟ عدا التفاخر والتباهي بها واعتبارها ماضيا تاريخيا يتبجحون به أمام الآخرين، ويسهم في استقطاب السياح وكسب عدة مئات من الدولارات؟! وكانوا يستهلكون هذه الدولارات لتهيئة وسائل راحة وتسلية السياح، والأنكى من ذلك أنهم كانوا يقدمون بقية السيف وتتمة أدبهم وثقافتهم لترضية السياح لكي يحصلوا على مزيد من الدولارات. وما العلاقة القائمة بين بوذا الجالس تحت شجرة التين والباحث عن النيروانا وذلك الرجل الياباني أو الهندوسي المعاصر؟ إن بوذا وكونفوشيوس والزرادشت والبراهما لا يفكان عقدة ويعالجان مشكلة لهذا الكائن المرهق على هامش الثقافة والحضارة الغربية، عدا أن يمتعوه في خضم هذه الجلبة ويلتقطون أنفاسهم معه.

آمل ألا يُظن بان الكاتب، لا يعرف قدر وقيمة الأشياء والمقتنيات الأثرية ويدعو إلى وهبها للأجانب. أردت أن أقول فحسب بان:

سكان الشرق وبنظرة ولغة عصرية، شأنهم شأن سائر الناس الذين يسيرون في هذا العالم، ينظرون إلى ماضيهم ويفسدون ماضيهم. إنهم وبسبب التنافر اللساني واللغوي، يفرضون دركهم العصري على أعمال القدامى، فمثلا نحن نحب العالم الذي كان يسير فيه حافظ، لكننا لا نسير في عالمه، ولا نقيم علاقة مع حافظ وعالمه. إن ضالتنا تختلف عن ضالة حافظ، ولا علاقة لما تحدث حافظ عن الصديق والكأس والمرشد والمطرب بالصديق والمطرب الذي نتحدث عنه نحن. إن الانسان الشرقي لا يجني فائدة من كل هذا العمل الثقافي. وغاية ما يفعله هو أن يحتفظ بهذه الأعمال والاثار في المتاحف، ويعتبر كل ذلك علامة ومؤشرا على ماضيه ومستقبله، لكن

ذلك الماضي التاريخي الذي انقضى، وفي الحقيقة علامة على الماضي الذي انقضى ورحل، العالم الذي بات لا يوجد، لانهم انفصلوا عن العالم الشرقي والديني منذ سنين وأصبحوا مشتركين في الأفق مع عالم الانسان الغربي، لكنهم يعيشون على مسافة كبيرة من الغربيين. وكذلك أنهم يحصرون الماضي التاريخي في ذلك الزمان الكمي والرياضي، الزمان الذي يقيسونه بساعة اليد ويقيسون طوله بالمذكرة الجدارية. وبالنسبة للجيل العصري، فان الزمان هو كذا والتاريخ هذا والعالم هذا، والا كما قال حافظ الشيرازي:

إن جيش الظلم منتشر من هنا إلى هناك

لكن الفرصة هي للدراويش منذ الأزل وإلى الأبد

التناغم اللسانى مع الماضى، بحاجة إلى التساؤل!

إن بوابة ذهن ولسان الانسان الشرقي قد فتحت لزهاء ٢٠٠ عام على الإنطباعات الكمية الناتجة عن تسلط التاريخ والفكر الغربي. إن هؤلاء ومن دون أن ينتبهوا، يقومون بترجمة إنطباعات أسلافهم، ويحولونها إلى اللغة المعاصرة ويضفون عليها فهما حديثا ومتطابقا مع عالم الانسان الغربي، أي أنهم يمررونها من مُرشِح النظرة الكمية ويُحمّلون فهما حديثا على كلام حافظ وسعدي وبوذا وكونفوشيوس ويعتزون بذلك.

لقد طرأ طارئ ملفت، ففيما الجميع منهمكون بعقل المعاش وتدبر العيش فانهم يواجهون المسألة والهواجس النفسانية. ويتهم إبن عربي، بايزيد وأبو الحسن خرقاني بامتلاك درك وانطباع عن العالم والانسان على غرار العصريين. إن هؤلاء متوقفون في الظاهر وبعيدون عن عالم الغيب وغيب العالم.

ونُحمّل الأعمال المتقدمة التي تعود جملة وتفصيلا إلى عالم آخر وبفهم مختلف عن الوجود، فهم المعاصرين ونفتخر بذلك.

لقد تعلمنا تبيان كل شئ بالصيغ والأعداد والأرقام ونظهر مقامه ومكانته وموقعه بالأعداد والأرقام. وحسب العصريين، نقوم بعلمنتها، وذلك العلم الحديث الكمّي الناتج عن المذهب التجريبي.

إن الأعداد والأرقام متعلقة بالإنطباع الكمّي عن الوجود، إلا أن هذا المستوى من فهم الوجود كان على امتداد مساحة انطباع الأقدمون، في أدنى درجات المعرفة و الفهم.

وعلى مدى السنين التي مرت على التاريخ الغربي، ونعيش نحن في ذيل ذلك التاريخ فان أدنى درجات المعرفة (الإنسانية والكمّية) تعد أفضل الدرجات بالنسبة لنا. إن نظرتنا إلى الطبيعة والأرض والسماء وكل ما هو سائد في العالم، هي نظرة نفعية وتكسبية، وتفسر قيمة كل شئ تأسيسا على التمتع البحت ومدى المنفعة والتملك والتصرف. وأول ما يتبادر إلى أذهاننا في وقت النظر إلى الكون، هو قيمته وكيفية التدخل والتصرف فيه وتحويله إلى مال، وبلا شك فان إبن عربي ومولوي وسعدي وحافظ و... يسخرون من هذه النظرة اليهودية. وحسبما يقول حافظ:

أين العارف الذي يفهم لغة زهرة السوسن

ولكي يسأل لِمَ ذهبت ولِمَ جاءت مجددا

إن منتهى انطباع ودرك الانسان الغربي للوجود، يمكن قياسه كمّا، من دون أن تكون له كيفية ذات مغزى في ما وراء العالم الترابي.

وإن تحدثنا بلغة الأقدمين وننقل عنهم، فانه تقليد باهت وعديم الجوهر. ولا يمكن تصور فهم ودرك تلك العوالم، ناهيك عن أننا نبغي تجربة منطلقهم ووجهتهم وسيرهم وسلوكهم.

إن انسان اليوم قد فرض نظاما رياضيا وكمّيا على العالم، وفي ظل تعريف جاف ومحدود ومحصور في الأخذ والعطاء. وهذه أكثر الحوادث ظلما تقع منذ بدء الخليقة وحتى هذا اليوم. والتعاسة لا يمكن أن تكون أزيد من هذا. وهذا يكفي لبقائنا غرباء عن عالم الانسان الشرقي (الشرق الماضي).

إن التقليل من شأن الوجود وتجاهل كل ما كان يملك لدى القدامى شأن المخلوق الإلهي، أبعد الانسان الحديث عن عالم الغيب.

وعندما طال هذا الوضع حياة الانسان، فانه أصبح بصدد توفير أسباب وأدوات تساعده على التملك. لذلك فان نظرته الأولى تركزت على العالم التكنيكي والكمّي و الحديث ومن ثم لجأ إلى التكنولوجيا لتصرف الأرض وامتلاكها. وكانت التكنولوجيا، وليدة العلم الجديد للانسان وحصيلة انطباعه الجديد حول العالم و الانسان. الأداة التي أسهمت في تداوم العالم الغربي، بحيث أنه لا توجد اليوم إمكانية استمرار حياة ذلك العالم وهذا الانسان من دونها.

إن الأزمة الشاملة التي اجتاحت اليوم كل شعوب العالم، هي حصيلة ووليدة هذا السير الذي لا عاقبة له. أزمة البيئة وتخريب جميع المصادر والفساد والبغاء والفقر والفاقة وبالتالي انفلات الانسان في الأرض، من دون أن يكون هناك أمل يمكن تصوره لإنقاذه.

إن كيفية الرؤية هذه هي ظلم بحد ذاتها، بحيث أن حصر الوجود في الكميات، كان ظلما، وأن نتيجة كل هذا الظلم تمثل في الدمار والضياع والأزمات واليأس والأمراض العضال وبالتالي إنفجار هائل، لا مفر لأحد منه.

لقد قدم الانسان الشرقي كل ما يملكه من أجل المساهمة والتماشي مع الانسان الغربي من دون الأخذ بعين الإعتبار بداية ونهاية هذه القافلة ومن دون تأمل في اليات ما حدث، ومنّى النفس أحيانا بانه قادر على التحكم بهذا الحصان الجامع واقتياده إلى وجهة وملاذ اخر. إن هذا التصور والظن، إنتزع الكثير من الفرص من الشرق، لذلك فانه اليوم ليس انسانا شرقيا ولا غربيا، لا مرتبط بالسماء ولا هانئ البال في الأرض.

إن الأنظمة التعليمية والبحثية في البلدان الشرقية والاسلامية، اضطلعت بدور رئيسي في إبعاد التلامذة والطلبة عن المبادئ والمفاهيم والرؤى الشرقية حول العالم والانسان وتقريب ذهنهم ولسانهم من التعليمات الغربية الجديدة، لدرجة أن هؤلاء المتعلمين الجدد باتوا يعتبرون الغرب مركزا للعلم والمعرفة.

إن بسط تعاليم ومعطيات علم الأحياء الغربية، حول درك الشبان الشرقيين من منظومة الكون وخلقة الكائنات إلى الفرضيات المتأتية من المذهب التجريبي البحتة للباحثين الغربيين، وأدى إلى إزالة القدسية عن خلقة الانسان وسائر الكائنات، بحيث أن معطيات علم النفس، قللت من شأن الفطرة المقدسة للانسان والروح المجردة الكامنة في جسده وهبطت بها إلى حد روح عارية من أي وعي فطري، وجعلتها موضوعا للتحليل النفسي في خضم التفاعلات المادية والتعقيدات ومواجهة العالم المادي. ومن هنا، فانه عقب مجموعتي علم الأحياء وعلم النفس، تولى علم الإجتماع مهمة ترتيب العلاقات الاجتماعية للمجموعة الانسانية (في ظل تعريف وخصائص المجموعتين السابقتين).

إن هذه المعطيات والتعليمات، تدفع بالتلميذ الشرقي ومنذ السنوات الأولى للمدرسة إلى الخوض في تعليمات داروين وفرويد ونسل القردة وعقد فترة الطفولة، عسى أن يتمكنوا بهذه الطريقة من معرفة أنفسهم وأقرانهم ومعرفة سر تفاعلاتهم في العلاقات الفردية والاجتماعية.

وفي ضوء هذا النظام التعليمي، يعتبر التلميذ هذه التعاليم الشرقية والدينية بانها غير علمية ومليئة بالخرافات ولا تستحق الإنتباه، ويعتبرها كحد أقصى التاريخ الذي مضى وانتهت صلاحيته أو تراث ثقافي يجب الإحتفاظ به في المتاحف. وكل هذا،

أبعد الانسان المسلم عن النطاق الثقافي المستند والمبني على معرفة خالق العلم والحكيم والتعاليم الوحيانية.

إن التناغم لسانيا مع الشرق لاسيما الشرق الاسلامي، هو شئ يختلف عن المتاحف والتفاخر بالتراث المادي أو تكريم بعض الاداب والتقاليد والأشخاص في الشرق.

إن سكان الشرق، غافلون عن إزدواجية العوالم هذه ويشيرون إلى غياب التفاهم بين الأجيال من خلال عبارات مثل: الإنفصال بين التقليديين وأنصار الحداثة ويعتبرونه تارة حصيلة ووليدة التنافر وضلال الجيل الشاب.

وكل هذا هو حصيلة الإغتراب عن عالم الأنس والألفة الشرقي المتناغم مع الروح وما في الضمير والفطرة الانسانية. إن العودة إلى هذا التناغم اللساني وترك الإغتراب، لا يتحقق إلا من خلال السؤال من الغرب والعالم الغربي. لقد جعلنا الانطباع الغربي، أساسا للنظر وجعلنا مصادره، حجة، وعندها ننظر إلى الشرق ونشكو من أزمة الهوية ونعتبر أن السبيل للتعويض عن ذلك يتمثل في تطوير المقاهي الفلكلورية والتقليدية، في حين أننا نهرول خلف الحداثة. إن السؤال من الغرب يهتم بكشف وتبيان عالم غريب مع روح الشرق.

لغتنا العصرية!

إن كل ما أسلفنا، يبيّن الهوة والمسافة بيننا وبين أعمال وتقاليد واداب وعالم الأقدمين. والواقعة التي بقيت خافية، لا يمكن تحديدها من خلال ترتيب الأعداد والأرقام، رغم أن التتبع والبحث قائم على قدم وساق لسنوات في العلوم الانسانية عن طريق الميثودولوجيا السائدة في العلوم التجريبية الجديدة. والمتتبع في هذا الحقل من العلوم، يبحث في النصوص القديمة من دون أن يتعلق بالماضي وعالمه قلبا ولسانا، ويقوم بمزج الحوادث الاجتماعية والسياسية السابقة في ظل الإنطباع العصري عن الانسان والعالم والطبيعة وفي ضوء النظرة الظاهرية لانسان العصر الحديث ليتوصل إلى أسباب ودوافع الحوادث. وفي هذا المجال، فان ما يبقى في المحاق وخلف الستار، هو الحقيقة والمشيئة الإلهية والأسرار، لان المتتبع يربط دركه العصري بالماضي وفي الوقت ذاته، يجعل الإنطباع العصري معيارا وأساسا للتشخيص.

إن التتبع في ذكرى ميلاد الأشخاص والمقام الدنيوي للشاعر والكاتب والعارف وسائر الشؤون الإعتبارية، لا سبيل له إلى الحقيقة، بحيث أن كشف عدد من الصناعات الأدبية ورديف وقافية غزليات سعدي وحافظ، لا يفتح أي نافذة على عالم

المعاني والمعارف القلبية لكبار أهل المعرفة، مثلما أن الحديث عن العرفاء والشعراء والحكماء وتبيان قصص وحكايات عن أحوالهم وحالاتهم، لا علاقة له بالمراحل والمنازل التي سلكوها. وأليس أننا جعلنا الطلبة يتلهون من بين كل تلك المعارف والحقائق الواردة في المصادر والنصوص، بتلخيص الكتب وصناعة المجموعات عن الحكايات والقصص المختارة أو على أكثر تقدير ترجمة وشرح بعض العبارات؟! وكل هذا مؤشر على أننا لسنا معنيين بعوالم الكبار القدماء والمقاصد والنيات التي كانوا يحملونها. لقد استغنينا عن كل تلك الحقائق لنجعل وجهتنا في السير في العالم الملكي والتصرف في الأرض مرفقا بالجهد لنيل الإعتبار الدنيوي. إننا مسافرو عالم الخيال، جعلنا أعمال كبار عالم الأنس، مادة وموضوعا لدراستنا وبحثنا.

إن حديثنا وحوارنا، ينصب على هذه المعرفة. إن من يسير في الساحة الدنيا، ليس قادرا على درك العوالم العليا والحديث عنها، إلا إذا قام بانزال قدرها.

إن معرفة الانسان كمّا (والمبنية على فكرة المذهب الانساني) لا تنصب أبدا على معرفة وتجربة اراء وأعمال أهل النظر ـ ممن تجاوزوا هذه المراتب-. وهذا يشبه بان تنهمك الصورة في معرفة المصور. إن عهدنا ليس عهد الركوع أمام مدرسة هؤلاء. إننا نعتبر أنفسنا جديرين بهذه المعرفة (وذلك بالإستعانة بالعلوم الكمية والتجريبية) وهذا الأمر انتزع منا أي إمكانية للتناغم لسانا وقلبا مع الأقدمين.

إن الحديث عن عالم أسفر عن التباعد والغربة، يعد مقدمة لإزاحة الستائر والعقبات. إن التناغم اللساني مع الأقدمين والتناسب مع عوالمهم، رهن بهذه المعرفة والسؤال الكبير من الغرب.

ومن بين ألوف المستشرقين، كم منهم من يبحث عن هذا النمط الخاص من المعرفة الحديثة والمستندة إلى العلمانية والفلسفة الوضعية، ممن استأنسوا بحقيقة الشرق والساحة القدسية لكبار أهل المعرفة الشرقية، وانخرطوا معهم.

إن الغرب لا ينوي التناغم لسانا ولغة مع الشرق، مثلما أن الشرقيين المنبهرين بالغرب، لا ينوون التناغم لسانا ولغة مع حقيقة الشرق. لقد منينا النفس بالعروس الغربية، كما أن الأجواء الغربية، أبعدتنا عن الشرق وجعلتنا نتشرد في بيداء محورية الذات.

لقد أقدم الغرب على مصادرة جميع الأعمال الشرقية وقام بادبيات جديدة (والنابعة من الانطباع الغربي) بتفسيرها وترجمتها.

إن تجريد الأعمال والأقوال الشرقية من الإعتبار المعنوي والقدسي (العلمانية)، يعد حادثة هائلة أزالت إمكانية أي تناغم لساني للغرب مع حقيقة الشرق.

ولسنوات تجري عملية إزالة القدسية عن العالم وعلمنة الأعمال الثقافية الشرقية الكبرى وتغليب المادية على سائر الإنطباعات وإضفاء الأصالة على الإنطباعات التجريبية البحتة (الفلسفة الوضعية) وتعميم التجارب الجنسية والجسدية للانسان المعاصر على تفسير وتحليل النصوص الثقافية وإيجاد جدار ضخم وسور هائل بين المعاصرين والأعمال الضخمة للمثقفين القدماء. وبذلك فان الانسان المعاصر، أصبح لا ينتفع ولا يستفيد من هذه الأعمال.

وربما يمكن القول بان لغتنا وأدبياتنا السائدة والمألوفة تشكل أحد أكبر العقبات والمشاكل التي تعترض طريق فهم المفاهيم والمضامين الواردة في النصوص القديمة.

ومنذ القرن الثالث عشر للهجرة فصاعدا، تولدت أدبيات جديدة حسب انتشار التوجه والأدب الغربيين بين المثقفين في العلاقات الفردية والجماعية لهذه البلاد والتغيرات التي طرأت على توجهات ورؤى الناس تجاه العالم والانسان.

إن الأدب الماضي كان يحمل في طياته أدبياته الخاصة به. إن هذه الأدبيات (صورة الألفاظ والعبارات) وفي علاقة وثيقة مع ذلك الأدب والثقافة، كانت تنقل المعاني والمفاهيم الواردة في الأعمال، بحيث أن سكان هذه البلاد، كانوا يقيمون علاقة وثيقة مع ذلك الأدب والثقافة وكانوا يتحدثون بادبيات تتناسب مع هذا الأدب والثقافة. إن نظامي وسنائي وسعدي كانوا ينظرون إلى العالم والانسان والنسبة بين هذين الإثنين مع خالق الكون، مثلما كان ينظر الناس العاديون والبسطاء، مع فارق أن انطباع كبار أهل الأدب، كان فاخرا وخالصا ونقيا، مثلما أن صورة الأعمال المنظومة والمنثورة كانت أكثر خلوصا ونقاء وجذابية ومدروسة من أقوال الناس البسطاء والعاديين، لكن لم يكن هناك انفصال بين قول وفعل عامة الجماهير.

وبعد القرن الثالث عشر للهجرة، لم تتغير صورة الألفاظ وكتابة الكلمات ولم يصب الخط الفارسي بالتغير مثلما حدث في تركيا، لكن وبسبب تغير عالم المتحدثين والخطباء، فان الألفاظ حملت معان جديدة. ويجب القبول بلاشك بان الإشتراك في اللفظ أذكى شبهة الإشتراك في المعنى.

وقدم الشعراء والكتاب المثقفون وتبعا للأدب والثقافة الغربيين، انطباعهم الجديد وطبعا المتسم بالصبغة الدنيوية البحتة في إطار الأدبيات التي لم تكن مسبوقة حتى قبل ذلك. وكانت هذه الأدبيات على علاقة مع الأدب الجديد وكانت تنشر تماما درك وانطباع الانسان المعاصر عن العالم والانسان، مثلما أنه لا يلاحظ أي تباين بين

الذين تربوا في مدارس المائة عام الاخيرة وبين كل استنتاجات شعراء العصر الجديد عن العالم، ماعدا أن هؤلاء قدموا ذلك الإنطباع بشكل أكثر جذابية وإيقاعا وبلاغة في قالب النظم والنثر الجديدين. وقد نهلت كلتا الفئتين من منهل واحد، وتعلمت في ظل أدب واحد وتتحدث وتكتب بأدبيات خاصة. وقلما بقي أحد في مأمن من هذه الآفة. إن الأدبيات السارية بيننا، هي علمانية ودنيوية بامتياز، وهي تضفي صبغتها على كل شئ وفقا لهذا الشأن والشخصية.

إن من يتوجه بهذا الأدب وبمساعدة هذه اللغة والأدبيات نحو الثقافة والمعارف الماضية والأعمال الأدبية للقدماء، من دون أن يعرف بانه يعلمن تلك الإنطباعات ويفرغها من قدسيتها، فانه يقوم بكلمة واحدة بترجمتها إلى لغة جديدة وبما يتطابق مع عالم وانطباعات العصريين عن الكون والوجود.

وفي كل من الشروحات والتفاسير التي وضعها متخرجو أهل التتبع والبحث الأكاديميين على مدى الأعوام المائة الأخيرة، على النصوص والأعمال الكلاسيكية للأدب الفارسي والنصوص الإسلامية، أقحموا فيها درجة من العلمنة والدنيوية من دون أن ينتبه الكتاب والمؤلفون إلى ذلك.

إن الألفاظ والمصطلحات السائدة، تحمل معنى ومفهوما علوميا نشأت وترعرت على مدى القرون الأربعة الأخيرة في أرضية الأدب الغربي وفكرة المذهب الانساني.

وتضفي هذه الأدبيات صبغتها على كل انطباع، بحيث أن ألفاظا ومفردات مثل العالم والدنيا والعقل والفكر واللغة والثقافة والرجولة والحقيقة والألوف المؤلفة الأخرى من المفردات، تثير المعاني والمفاهيم التي هي حصيلة الأدب الغربي، في

الذهن، أي أن ثمة هوة ساحقة بين ما يفهمه ويبينه حافظ ومولوي وجامي وأعاظم قبيلة الدين عن العقل والثقافة والأدب والحق وبين الإنطباعات والترجمات المقدمة عن هذه الأعمال والأقوال في عصرنا.

ويفهم القارئ العصري من الفكر، التفكير في الشؤون الجزئية للحياة والتدبر في كمية الحياة اليومية، وهو أنزل درجات العقل، أي العقل الجزئي المكلف بذلك، في حين أن المتعلمين والمتثقفين في مدرسة الدين والتناغم اللساني مع رجال مثل حافظ والمشتركين لغويا معه، يعتبرون الفكر، الإنصراف عن الباطل والتوجه نحو الحق.

وخلاصة القول أن أدبيات اليوم، هي بمثابة حجاب كبير يغطي أدبيات الماضي ويشكل عقبة كأداء تعترض طريقنا، العقبة التي تحول دون تواصلنا مع المفاهيم والمعارف الواردة في المصادر والنصوص الماضية.

إن الشرق الاسلامي ومن أجل درك العالم الشرقي، لابد له من العودة عن هذا المسار والإقلاع عن أساليب معلمي العصر الجديد والتساؤل عن جميع مبادئ وأسس العلوم والأدب المتلازم مع أكثر الإنطباعات عن الوجود ضحالة. إن تجاوز هذا الأدب وتكرير هذه الأدبيات، رهن بالسؤال من الغرب، ومن دونه، فانه من غير الممكن الترابط مع تلك المفاهيم الراقية والدخول إلى مجال علم وعمل الكبار وتنشئة جيل قادر على النظر إلى العالم من منظر حقيقي والتفكير بشأنه والتواصل مع حقيقة الوجود.

إن الجملة الشهيرة المتمثلة بالتخلف عن ركب الحضارة! تُهمس لسنوات في أذان ابائنا واذاننا واذان أبنائنا ويتم تحريضنا على الحركة للوصول إلى هذه القافلة في ظل الألوف من التمنيات والتوصيات، بحيث أنهم اعتبروا السنوات الختامية من

القرن العشرين بانها تشكل آخر فرصة للدول النامية أو غير المتطورة ـ وهذا مصطلح مفبرك لعلماء الاجتماع الغربيين ـ للحاق بهذا الركب. وطبعا أبدى الغرب على مدى الأعوام الخمسين الماضية، حرصا أكبر منا، أي سكان الشرق والبلدان غير المتطورة، للتعويض عن هذا التخلف!

وبتقديرهم فإن التنمية هي التقدم والتطور وركب الحضارة وفي الحقيقة الحداثة والعصرنة، أسلوب يمهد للتخلص من التخلف المذكور.

وهناك الكثير مما يمكن قوله عن سبب حرص الغرب على التعويض عن تخلف هذه الشعوب عن طريق المنظمات والبنك العالمي وصندوق النقد الدولي.

ويكفي في هذا الصدد القول بأن الغرب لا ينتفع كثيرا من التخلف المفرط للدول غير المتطورة، لان ما تبقى من التقاليد الثقافية وأثرها على الأمم الشرقية، يشكل إزعاجا بالنسبة للغرب واستمرار همينته من جهة، فضلا عن أن عدم التنمية يقضي على فرص تسويق وبيع المنتجات والبضائع الغربية من جهة أخرى. ومن وجهة نظر هؤلاء وأصحاب الشركات متعددة الجنسيات، فان نسبة قليلة من التنمية (العصرية) التي يتم التحكم بها، يمكن أن تجعل عدم المتطورين جاهزين للمزيد من إستهلاك السلع الغربية الحديثة وبالتالي تحريك السوق الراكدة للصناعات الغربية.

ويجب النظر ما إذا كانت التنمية والعصرانية، تؤديان إلى غربنة الشرق والنهوض به من مرتبة الإنبهار بالغرب؟

والمؤسف أن تلهينا على مدى مائتي عام، تسبب بابتعادنا عن الصناعة ومكاسب العصر الحديث، ومن أجل تحقيق هذا الغرض، وضعنا الكثير من رساميل الشرق الكبير بتصرف ناهبي الدهر، بحيث حللنا النظام المدرسي الجديد محل نظامنا التعليمي السابق وأضفنا على عرض وطول المناهج الدراسية وأقحمنا سنويا فصلا

جديدا في الفهرس الدراسي للتلاميذ، واتبعنا مئات الأساليب والخدع الأخرى، عسى أن نصبح أصحاب علم وتكنيك وصناعة ونلحق بركب الحضارة، لكن هذا الشئ لم يتحصل بالطريقة التي ترضينا وتجعلنا نستغني عن الآخرين.

وقد أزلنا يوما الحجاب عن النساء واللحى عن الرجال عسى أن نتمكن بمدد القبعة الافرنجية والنظام المدرسي «الفرنسي» و «البلجيكي» من زيادة سرعة حركة قافلة الحضارة، لكن الشرق لم يحصل على شئ من الغرب سوى التطفل. لا ألا يملكوا المعمارية والمدن العصرية والشقق الفاخرة والسيارات الفارهة، فهم يملكون كل هذا وفوقه المطابخ الحديثة والبيتزا و...، لكنهم مستغربون ومنبهرون بالغرب لا غربيين، فهم معلقون في موقع بين الأرض والسماء، لا يشتركون في اللسان والأفق مع الشرق ولا في العالم واللغة مع الغرب.

إن الرغبة العارمة لنيل الحياة العصرية المطعمة بانعدام الفكر والتحلل الخلقي، أبعدتنا عن القافلة الثقافية المتحركة للشرق، فيما فصلنا الصمت في وقت السؤال وغياب الأسباب (كما يجب) عن ركب الحضارة العصرية، لذلك فاننا لم نبق شرقيين ولم نصبح غربيين.

إن هذه القصة هي قصة حيرة وذهول عموم سكان الشرق. فقد بات كلهم مغرمين بالصورة التاريخية للغرب ومستهلكين لمنتجات علمه وحضارته، ودخلوا في سباق لنيل العصرية، من دون أن يكون أي منهم قادرا على إيجاد المقدمات اللازمة لذلك، بحيث أنهم قلصوا خلال القرن أو القرنين الأخيرين من طول وعرض التقاليد الشرقية، وتراجعوا ليفسحوا المجال للغرب وثقافته وحضارته.

لكن العلم والتكنولوجيا لم يكونا ذلك الطير الذي يحط على أي سقف ويدخل أي باب، ولم يصبح أي أحد صاحب علم من خلال تركيب الصورة الظاهرية. وعلى مدى الأعوام المنصرمة، وعلى الرغم من تأسيس عشرات الأكاديميات الثقافية ومراكز البحوث والدراسات، لم يكلف أي محفل وجمعية بطرح السؤال لدى العلم الحديث وما يمكن أن يكون بالضرورة العامل والأداة الأولية لنيل ذلك. بعبارة أخرى، فاننا حدقنا النظر إلى الشرق والغرب والثقافة والحضارة وحتى العصرانية بنظارة مستعارة، وجعلنا هذه الرؤية معيارا للقياس والإنتخاب والتبعية العلمية والتكنولوجية.

لقد أغلق الشرق، أبواب أي سؤال، حتى السؤال عن منطلق وملاذ كل ما أطلقنا عليه اسم العلم.

إن آفة تقليد الغرب من دون تفكير، أدت إلى أن يتجاهل الذين كانوا يبحثون عن العلم والمعرفة الجديدين، الإشتراك اللفظي القائم بين أهم المصطلحات والعبارات والأسماء والألفاظ المفتاحية المطروحة في النظام التقليدي الشرقي والجديد الغربي، بحيث أنهم أصروا على هذا التصور القابل للنقد من أن العلم و الأدب والعقل والفكر والوف المصطلحات والمفردات الاخرى الموجودة في العلم الجديد، تحمل تلك الشحنة المعنائية والمفهومية التي كانت سائدة في التقليد الديني والشرقي. ومن جهة أخرى، فانهم افترضوا وحسب ذلك العارض، بان مجمل العلوم والفنون الغربية تفتقد إلى الجوهر الثقافي والفكري وأغفلوا النسبة القائمة بين الظرف والمظروف والإسم والمسمى، بحيث أنهم ينظرون اليوم إلى مجمل العلوم والفنون الغربية بنظرة إناء قادر على نقل المفاهيم والمعاني التقليدية والمعارف الإلهية الحقة. إن التعاطي

بلا تفكير مع الثقافة والحضارة الغربية وعدم ملاحظة النسبة والترابط بين العناصر الحضارية والأسس الثقافية، أدى لكي تظن جماعة من الناس بان مجمل الصور الحضارية، هي بمثابة إناء بلافاعلية وجاهز لتقبل أي معنى ومحتوى، والإستناد إلى أن كيفية استخدام الانسان لهذه الفنون والأواني يؤدي إلى اندلاع الأزمة والزوال الثقافي والأخلاقي، ليكونوا بصدد اثبات للعالم أجمع بان الشرقيين الذين هم طبعا في غنى عن الشرق والتقاليد الشرقية، قادرون على احتواء وإدارة وتوجيه هذا الحصان الحرون على طريق الصلاح والتقوى، وإبراز المعرفة القلبية والديانة من كل ذلك النور.

وحصيلة هذا التصور تمثلت في إرغام الأطفال والأحداث منذ السنوات الأولى من بدء التعليم والتعلم، على تخزين كم هائل من مصادر ومحتوى المواد والمناهج الدراسية التاريخية والأدبية والدينية والرياضية المترجمة في ذهنهم وقلبهم ولسانهم. كما أن التلامذة ومن دون أن يعرفوا بانهم ينظرون في كل ساعة من اليوم إلى هذا العالم من منظر ما، فتارة من منظر غاليليو وكبرنيك ونيوتن وتارة أخرى من منظر بايزيد وجنيد وأبوريحان، فانهم مجبرون حسب تعليمات المعلم، أن تكون مجمل نظراتهم متقنة وحقيقية وواقعية.

والنتيجة واضحة، ذهن مشوش ونفس كئيبة، وروح عديمة الإستقرار ومستقبل مرتبك. الواقعة التي طالت على مدى القرن أو القرنين الأخيرين، عامة تلامذة عصرنا في أقاصي نقاط الشرق الكبير بما في ذلك البلدان الاسلامية.

إن السؤال من الغرب وروح العلم والتكنولوجيا، هو بمثابة مقدمة لخوض ساحة العلم والتكنولوجيا الغربية واكتسابها. السؤال الذي تم تجاهله على الدوام.

السؤال الأول؛ السؤال حول بداية الوجود و العالم الغربى

ربما ثمة حاجة للصبر والإنتظار لعدة قرون لكي تتمكن أمة ما، من بلوغ منعطف كبير. إن هذه المنعطفات، تفضي إلى توجه كبير وحركة عامة لهذه الأمة وتسهم في إيجاد حقبة أو تاريخ جديد، وربما تؤثر على سائر الأمم والشعوب وتهب لها صبغة ورائحة كل ما تعلقت به.

وفي المنعطفات المهمة، تتجدد العهود. ويبرم الانسان عقدا مع أمر وموقع ما وينظم مجمل توجهاته ووظائفه المتعلقة بالمناسبات والعلاقات الفردية والجماعية بما يتناسب مع ذلك العهد ويلزم نفسه بحمايته وحراسته. إن هذا العهد هو بمثابة إعلان الرابط والجهوزية لقبول جميع نتائج هذا العهد وقبول كل الصور الناتجة عنه. ومن هنا، يصبح الأدب والأدبيات سيرة وصورة جميع الأعمال والأقوال ومن ثم يتحول ذلك العهد إلى موقع يتجلى ويتجسد فيه ذلك العهد.

ويصبح المثقفون الواعون، في هكذا بحبوحة قادرين على تكهن الوضع والظروف المستقبلية، لان أهل الفكر والمعنى، يدركون إجمالا النتيجة النهائية وغاية التوجهات وزوايا حركة الانسان ويبلغون عنها.

إن المنعطفات التاريخية المهمة، تشكل دائما نقطة الفصل عن العهد السابق. لذلك، فان جميع العلاقات العامة للناس، متلازمة في هذا الوقت دائما مع الصراع والأزمات.

وقبل أن تظهر الأزمة نفسها في سطح وظاهر العلاقات والتعاملات، فانها تؤثر على الأسس والدعائم. بعبارة أخرى، فان التغير في الأسس والدعائم، يمهد للتغير في السطح وفي العلاقات والتعاملات العادية للحياة.

وفي وقت التغير وانفصام العهد الماضي وإبرام عهد جديد، تتوفر أرضية تغير جميع صور وسير الأمور. ويتم إرساء عالم وإنسان جديدين، ويظهر عهد جديد وتاريخ جديد وانسان جديد ونمط جديد من الحياة والذي يتجلى في هيئة حضارة جديدة.

إن المفكرين ينتهبون قبل غيرهم إلى هذا التغير وأحيانا سببه والعامل الكامن وراء تجدد العهد هذا، بينما عوام الناس وعامتهم، يتأثرون بالمفكرين والمعلمين فيما يخص صورة الحياة ورتق وفتق الأمور المادية والجارية.

ولابد من ذكر هذه النقطة الطريفة والمقتضبة طبعا، من أن الانسان صاحب اختيار وإرادة في بلورة ونشأة أي عهد ونتائجه ويجب أن يقبل بالتالي بان أي عهد ينطوي في حد ذاته على مجموعة من التقاليد التي لا تغيير والنتائج والتبعات التي لا تزول بهذه البساطة. إن إبرام العهد عمل بسيط لكن الخروج منه صعب، وربما تستمر تبعات وتداعيات عهد وتاريخ ما لقرون وتكون مؤثرة في الكثير من الأمور إلى أبد الآباد.

وأي عهد يحمل الانسان تعهدا وهذا التعهد يترك بصماته في شتى مجالات الحياة، بحيث أن تعاقد الانسان الغربي مع النفس الأمارة والشيطان، على مدى أربعمائة عام الأخيرة، حملت جميع الشعوب بما فيها سكان الشرق الاسلامي تبعات عصيبة.

تغير الرؤية والتلقى من المنطلق!

إن تقديم تعريف عن منشأ ومبدأ ومصدر الوجود، يشكل نقطة البداية لكل التغيرات الفكرية والثقافية والمدنية. الإعتقاد الخاص الذي يحدد ويوضح النسبة والتعهد والتكليف والمسؤولية والنطاق الوظيفي واختيار الانسان وكذلك موقعه في الوجود.

إن نوع الإنطباع والمعرفة حول نشأة وبدء الوجود، لا يندرج ضمن دائرة الحوار الكلامي والفلسفي والنظري الأكاديمي والحوزات العلمية، بل يتحول إلى مصدر للتغيير في كافة شؤون وساحات حياة الإنسان. ولا يضطلع أهل النظر بدور عملي في العلاقات المادية للناس في الظاهر، لكنهم يضطلعون باهم الأدوار في جميع ميادين الحياة الثقافية والمادية. فكلامهم هو العمل بعينه ومنشأ عمل أبناء البشرية على امتداد التاريخ المستمر منذ آلاف السنين. فان كان هذا الإنطباع غامض ويفتقد إلى المصداقية العقلية الكاملة، أو أنه لا يمكن إقامة حجة تامة وثابتة ودامغة وشاملة له، فان أساس كل ما يبنى عليه، سيكون مقلقلا ومهتزا وناقصا ومعرضا للخلل وقابلا للدحض والنقض والتشكيك وسيوفر أرضية ظهور الفساد والأزمات في العلاقات الثقافية والتعاملات في الأرض.

إن أهمية هذا الشئ تكمن في أنه يعد على الدوام وبشهادة جميع العصور وأعمال كبار أهل النظر والفكر والإعتقاد، في فئة أشرف البحوث والموضوعات. إن الحكمة النظرية لدى أهل الفكر، مقدمة على الحكمة العملية، كما أن الموضوعات العقائدية والكلامية لدى جميع أتباع الديانات السماوية، تتصدر سائر البحوث والموضوعات

وتعد أشرفها وتندرج ضمن فئة الأصول (لا الفروع)، وهي الأصول التي تبنى عليها جميع الفروع وتكتسي قابلية الدفاع.

إن المجاهدة الكبرى لكل الأنبياء الإلهيين والحكماء المتألهين والمفكرين جليلي القدر والمقام، انصبت قبل كل شئ على توطيد أساس النظر ومنشأه ومبدأه، وأعلنوا على الدوام بان هذه القضية تشكل السبيل الوحيد لإيجاد مخرج للأزمات والإضطرابات والتشرذم في العلاقات. إن الأزمة هي حصيلة ارتباك وتقلقل تيارين وجبهتين متناقضتين كما أن الضجيج والغوغاء هما الوليد الطبيعي لهذا الإضطراب.

إن سر الكثير من الأزمات التي تعصف بمجالات حياتنا الفردية والجماعية يكمن في العلاقات الإجتماعية والمضطربة التي ألقت بظلالها خلال الأعوام الأربعمائة الأخيرة على ثقافة ومدنية الأمم الشرقية بمن فيهم المسلمون.

وفي التقليد الشرقي لاسيما الديني والإلهي والسماوي، فان مبدأ الوجود وخالقه ومديره ومدبره، ومنشأ ومصدر كل كائن هو الذات المطلقة والذات اللا متناهية وجوهر واحد وفريد، وهي مصدر صور وحقيقة الحقائق المتعالية، ولا أثر وعلامة للنسبية في ذاته. فهو الخير المحض ومصدر كل إمكان في الدنيا ومصدر كل كائن وامر حقيقي، وأن مجمل المطلقية والمقبولية نابعة منه، وملكوت كل شئ بيده وبوصفه حقيقة الحقائق يحوي كل إمكان، وكل شئ عرضي مقارنة بذاته واجبة الوجود.

إنه وحده ولا أحد غيره وحده لا إله إلا هو

إن كافة الإنطباعات الدينية العارية من الإنتقائية وإختلاط الأهواء والآراء، تنطوي على المعاني آنفة الذكر وتجمعها في آن واحد في الوجود المتعالي للخالق

الذي هو مطلق الجمال والجلال والكمال، وأن الحمد له وخاص به وليس له أي شريك أو مثيل أو منافس، إنه نور السماوات والأرضين، العزيز القدير الحكيم العالم وأن الإقرار والإعتراف والإعتقاد الخالص به، هو مصدر الفلاح والأمن والإستقرار في مدار العزة. العزيز الذي يملك صلاحيات وقوة تامة ومستغن عن كل ما هو غيره، وهب من منطلق الرأفة والشفقة، جزءا من الوجود بما يتناسب مع الإستطاعة والطاقة إلى مخلوقاته سواء الجمادات والنباتات والحيوانات والانسان، لكي يسلكوا مسار الهداية ويسبحون بحمده ويشكرونه لربوبيته كما يسلكوا طريق الكمال للوصول إلى الفناء التام متكئين على رحمانيته ورحيميته، ويجسدوا جزء من صفاته الجمالية والجلالية في وجودهم ويتحولوا إلى مسمى اسمي من جميع الأسماء ويتصفوا بصفة من جميع أوصافه الكمالية ليتحرروا من قيد الأنانية والعصيان ويهموا في مقام العبودية التامة بالعروج والصعود إلى الساحات العليا والسامية.

إن التاريخ والفكر الغربيين، عاريان عن المعاني المذكورة حول مبدأ الوجود ومصدره. إن نسيان الله بوصفه الحق وحقيقة الحقيقة المطلقة، أدى إلى أن يفترض الانسان العاصي، كل الأمر المطلق بانه نسبي وكل الأمر النسبي بانه مطلق، وانتزع بذلك شأن المقبولية والمطلقية من الله تعالى ليوجه جل المقبولية والمطلقية نحو الانسان الدنيوي ليعتبر نفسه بانه دائرة مدار الوجود ويفترض نفسه بناء على المذهب الانساني، بانه مخير في الأمر والنهي ووضع ما يجب وما لا يجب فعله وفي مجال التشريع.

إن التقليل من شأن مقام خالق الكون والوجود من وجه ماوراء الطبيعة إلى الوجه المادي والكمّي البحت، أدى إلى إعطاء تعريف باطل وغير حقيقي عن المبدأ

وخالق الكون. وهذا التوجه تسبب بحدوث تغير في أساس الرؤية نحو الوجود وكذلك مصدر الرؤية.

وهذه الموضوعات لا جدوى منها بالنسبة للشخص الذي لا ينتبه إلى مكانة وساحة ودور الموضوعات النظرية ومصدرها وأساسها في حياة الانسان والإرتباط التام لجميع الأعمال الفردية والإجتماعية بها ولا يهمه وجودها من عدمه، في حين أن جميع أفعال وردود أفعال الانسان في التاريخ بما في ذلك ظهور وبروز الثقافة والحضارة التي تنظم جميع العلاقات الفردية والجماعية، ترتبط بهذه القضية بشكل تام، وأن تجاهلها يعني تجاهل المبادئ والأسس.

إن هذا الحوار، قائم دائما في قمة تعاليم ومواقف الأنبياء الإلهيين في هداية الناس والأخذ بهم لعبور طريق الباطل إلى الحقيقة، بحيث أن مواقف ومعارضة الكفار، نابعة قبل كل شئ من بيان الأنبياء حول مبدأ الوجود.

إن إصلاح الرؤية حول مبدأ الوجود وتوجيهه في طريق الحقيقة، يشكل الحجر الأساس للثقافة والحضارة الإلهية التي ينادي بها الأنبياء.

إن الكلمة الطيبة المتمثلة في لا إله إلا الله تشكل أول شعار وتبين أساس رؤية النبي الاكرم(ص) إلى الوجود. لذلك فان علم التوحيد يعد في الدراسات الدينية والتقليدية والشرقية والاسلامية، أشرف العلوم ويعتبر بوصفه المبادئ العقائدية، النقطة الفاصلة المهمة والحساسة بين التدين والخروج من الدين.

وينظر الموحد ضمن قناعاته إلى الإله الذي هو مبدأ وأصل عالم الوجود ومنشأ كل كائن وأن الانسان، هو عبده ومسؤول أمامه، وأنه سيمثل أمامه ما بعد الموت.

إن أنبياء الغرب الجديد، يبشرون بإله غير حقيقي، ويعرضون عن إله الأديان، ليعتبروا أن جميع شؤونه الخاصة معطوفة على الإنسان، ومن هذا المنطلق لم يبق

مكان لتكبير الحق والحيرة والخشية من الله. إن انفصام التواصل والتعلق بالحق، جعل الإنسان منفلتا وعديم المعتقد والمعنى والوجهة في بيداء الأرض. وعلى أي حال تحول الانسان إلى طاغوت، لانه يعتبر نفسه مصدرا للنظر والرأي النفساني وأساسا للنظر.

ومن وجهة نظر مثقفي عصر الإصلاح الديني والتنوير في القرن السادس عشر للميلاد، فانه على الرغم من أن البشرية هي صاحبة خالق، لكن هذا الخالق يفتقد إلى أي سلطة على الانسان والقدرة على الأمر والنهي. لذلك فان الانسان غير مرغم على طاعة هكذا إله، بل بوسعه معالجة وتسوية أي مشكلة ومسألة بمنأى وغنى عنه.

إن التقليل من شأن ومكانة الخالق السماوي، ينطوي في حد ذاته على الإستغناء عن الأنبياء والكتب السماوية. وحسب زعم هؤلاء، فان العقل الكمّي والجزئي يجعل الإنسان في غنى عن أي حكم سماوي.

جدير ذكره أن رؤية المثقفين هذه نابعة من إنتمائهم للتيارات الفكرية اليهودية ومصادر الكابالا.[١]

وإن كان عبدة الأوثان وجهلة العصر الجاهلي، يُعرضون عن إله نبي آخر الزمان، النبي محمّد(ص)، فانهم كانوا يعبدون كائنا خارجا عنهم على هيئة أصنام اللات وهبل والعزى، وكانوا ينمون بباطنهم الولاية الطاغوتية المصطنعة وغير الحقيقية، ويوجهون محبتهم وعاطفتهم نحو ذلك الطاغوت، لكن الانسان الغربي، وفي مرتبة أحط من العصر الجاهلي، إعتلى عرش الخلافة وجلس على كرسي الأمر والنهي ليعلن الحسن والقبيح، وهذا الانسان تحول في الحقيقة إلى طاغوت.

---

١. يتضمن كتاب صدر تحت عنوان «المسار الرئيسي في الباطنية اليهودية» عن جامعة «القدس العبرانية»، موضوعات ملفتة عن ارتباط الكابالا بالتنوير. (البروتستانتية، والبيوريتين والمسيحية الصهيونية، نصر صاحب خلق، ص ٦٥، من سلسلة اصدارات هلال).

وثمة فارق شاسع بين من يعتنق ولاية الطاغوت وبين من يتحول هو إلى طاغوت. لذلك فان الكفر والشرك الغربيين يبدوان معقدين ومتداخلين ومتعددي الأوجه. لذلك فان اختراقهما صعب للغاية. بعبارة أخرى، فان الانسان الغربي، اعتبر أنه يملك المطلقية والمقبولية اللتين هما أساسا لله الواحد الأحد الذي لا شريك له. ومن هنا، فانه اعتبر أن من شأنه الحديث وابداء وجهة النظر حول كل شئ بما في ذلك إله الديانات التوحيدية وجميع العوالم الملكوتية والمجردات المقبولة لديهم، وأضفى على كلها اعتبارا جديدا.

إن الإعتبار والتعريف الجديد الذي قدمه الانسان الغربي عن الخالق ومبدأ الكون، لم يكن سوى كائن معرّف ومحدود بالعقل الكمّي وانطباعاته التجريبية. إن هذا الكائن المصطنع وطبعا النسبي الخارج عن إرادة الانسان لم يكن يملك أي قدرة ولم يكن يحظى باي منصب ومسند، بل كان أصلا محدودا ببحث ورغبة حقيرة وتافهة. ومن هنا فان تعميم هذه النسبية في ميدان الثقافة والحضارة، أظهر بان الأوجه المختلفة من حياة الانسان المعاصر، متمردة وعاصية.

إن الدين الجديد للمثقفين الغربيين، كان دينا عقليا بحتا وما يسمى الدين الطبيعي، لانه وحسب النظرة الحديثة للوجود، كانت الطبيعة تبدو أكثر دقة من أي استدلال، بحيث أن بيكن كان قد قال:

إن الطبيعة هى أدق من كل استدلال.[١]

وفي القرن الثامن عشر، وضع أتباع المذهب العقلاني بمن فيهم الكسندر بوب، مذهبا يوافق مفهوم العلوم الطبيعية الجديدة.

---

١. بارنز وبكر، تاريخ الفكر الإجتماعي، ترجمة جواد يوسفيان، ج ١، صص ٢- ٤.

إن الله يتجلى فى كل شئ، خاصة قوانين الطبيعة لذلك فان القانون الإلهى والقانون الطبيعى، سيان.[١]

إن تلطيف المعتقد الديني حول مبدأ الوجود إنتقل إلى سائر المفاهيم وأدى إلى تغير جاد في جميع الإنطباعات بما في ذلك الأخلاق.

إن المؤمنين بالديانات السماوية، كانوا يعتبرون أن الأخلاق نابعة من مصدر الفيض الإلهي والمنظمة لجميع العلاقات الانسانية للسير في طريق الدين وكانوا ينظرون إلى المفاهيم القيمية بوصفها مفاهيم ثابتة تحظى بتأييد السماء، لكن التقليل من شأن القوانين الدينية وإيصالها إلى حد القوانين الطبيعية البحتة أدى إلى جعل الجمال معيارا للأمر الأخلاقي. ومن هذا المنطلق، فان كل شئ جميل اعتبر أمرا اخلاقيا، بعبارة أخرى، فان النسبية في المفهوم والموضوع ومصدر المعرفة ومبادئها، أدت إلى بروز النسبية في المفاهيم الأخلاقية كذلك وأثرت بذلك على سائر المفاهيم.

وفي ضوء ما ذكرنا، فان إنقطاع تعلق البشرية بالدين، بمعناه الشرقي والاسلامي، أدى إلى التعلق التام بالطبيعة وعالم المحسوسات. لذلك ومن وجهة نظر المثقفين، فان الطبيعة وتمنيات الانسان الطبيعية أصبحت تقود الانسان قبل أن يقوده ويوجهه الدين.

إن دراسة طريقة تغير وتبدل الإنطباعات الدينية وأثر هذا التحول والتبدل على المجالات الاخرى لحياة الانسان الغربي، ضرورية لمعرفة العصر الحاضر والثقافة والحضارة الغربية واتخاذ القرار في خضم التبادلات والتعاملات مع الغرب.

---

١. المصدر السابق، ص ٤٠٤.

والمؤسف أن عدم السؤال، إستحدث نوعا من التقاعس في الحياة الفكرية والثقافية للمسلمين، لدرجة أنهم أقحموا من دون علم، الإنتقائية والإمتزاج الفكري والثقافي في حياتهم.

إن المخرج من هذا الوضع الإنفعالي وإتخاذ القرار الجاد لتجاوزه، رهن بهذا السؤال الكبير.

ولا شك أن هذا البحث لا يسع لطرح جميع الموضوعات بشكل دقيق. ويتعين على جميع الحوزات الدينية والمؤسسات المعنية بالشؤون الثقافية أن تضع السؤال من الغرب على جدول أعمال فرقها الدراسية والبحثية، شريطة ألا تتلوث هي بالإنبهار المضاعف بالغرب والمنفعل أمام الغرب وثقافته.

إن مراجعة مبادئ ومصادر المعرفة حول مبدأ ومنشأ الوجود، وتطهير التعاليم من شوائب الإنتقائية والإمتزاج وتجديد بنائها تأسيسا على المعارف الحقيقية، يشكل نقطة البداية للإقلاع عن الإنبهار بالغرب.

إن غلبة المعارف الحصولية البحتة على المجالات النظرية للشرق الكبير والشرق الاسلامي، أرست حجابا سميكا بين الانسان وحقيقة الوجود.

إن استناد الفكر البشري إلى الإنطباعات الحصولية النابعة من تاريخ الغرب وفكره، أدى إلى القطيعة بين الانسان والإمامة الحقيقية وتراخي سلسلة تعلقه بالحق وإبعاده عن التوحيد والعبودية بمقدار ارتباطه وعلاقته بتلك الإنطباعات.

إن الإستناد إلى هذا الإنطباع الذي جعل على مدى الأعوام الأربعمائة الأخيرة التشبث بالدنيا يسود الحياة الثقافية للانسان الغربي، أدى إلى إكتساب النفس الأمارة، الأصالة في نوعية النظرة والإنطباع عن الوجود واعتبر الانسان نفسه محورا

ومدارا لجميع الشؤون ومصدر معرفته وأساسه لدرجة أن حياته أفرغت نهائيا من التوحيد والانسانية الحقيقية.

وخلال هذه القرون الأربعة، حل طاغوت النفس الأمارة تدريجيا محل الله جل جلاله وجميع الشؤون المقدسة الدينية والشرقية، وحسبما يقول المرحوم الدكتور أحمد فرديد، جعل الأنانية وحب الذات والنهلستية البحتة، من نصيب الإنسان ورزقه.

إن تاريخ الأعوام الأربعمائة الأخيرة هو تاريخ الأنانية الفكرية وتمرد البشرية على جميع المقدسات والخروج عليها.

إن اهتمام إنسان العصر الحاضر هذا بالعالم المادي والواقعية البحتة والميل نحو التصرف والإستيلاء، هو حصيلة ووليدة الإعراض عن الحق وإدارة الظهر على الأمر المقدس. الإهتمام الذي جعل الانسان يستحق سخط وغضب الحق.

إن إحالة الفكر إلى الذات (النفس الأمارة) تتطلب ظهور انسان مدع ولاهث وراء السلطة ومستكبر يقرع في ظل الشمولية على طبل لِمَن المُلك. إن هذا الفكر، تسبب في سيره الإكمالي في ظهور وبروز الامبريالية في السياسة والاقتصاد.

إن الطريق للتخلص من هذا الوضع، يتطلب مراجعة الأسس المعرفية والرجوع إلى إمامة الحق وثورة كبرى، وفيما عدا ذلك، فانه لا سبيل لإحياء الإنسانية الميتة. إن التواصل مع المظهر التام للاسم الحي، قادر على إحياء هذا الانسان.

وفي النظام الفكري والعقائدي الاسلامي لاسيما الشيعي الذي قدمه المعصومون(ع)، فان إمام الزمان هو المظهر التام للإسم الحي ومظهر حقيقة الحقيقة المطلقة التي يوفر التواصل معها إمكانية تجاوز قرون من التخلف والعجز

والإمعان في الباطل والطغيان. إن الصراط المستقيم الذي يأخذ بيد الانسان ليعبر به من بوابات النفس الأمارة ويستند إلى شأن باب الله كي يتمكن إمام الحقيقة هذا للعثور على إنطباع حضوري وقلبي عن الحقيقة.

إن هذا الأمر لن يتحقق من خلال إطلاق الشعارات واتخاذ المواقف السياسية وإصدار البيانات و... . إن الظلم الكبير والمزمن للبشرية يتمثل في إنفصام العهد عن منبع ومنهل الهداية الحقيقية والإنخراط في الإمامة الضالة.

وفي هذا النظام العقائدي، فان لا علم (حقيقي) يوجد لدى أي شخص، ولا سبيل أمام أحد لبلوغ السماء. إلا اذا ارتبط الانسان بالصراط المستقيم، وهو باب الله وصراط الله وامين الله والعالم بالإسم الأعظم لله. الحجة الجلية التي جعلها خالق الكون سببا لاتصال السماء بالأرض وواسطة الفيض ومربي جميع خلق العالم للعروج إلى المراتب العليا والمتعالية، صاحب علم لا يساوره أي شك وشبهة.

إن الإمام محيط بعالم الإمكان وروح هذا العالم وسلطان وحافظ ومتصرف فيه (بإذن الله) وأصول كل علم لديه.

ولا سبيل أمام أي مجدد، إلا اذا عرض كل ما يعرفه عن العلم على «القرآن» والعترة من ذرية النبي الأكرم(ص) ويجعل من سيرتهم وسنتهم أساسا لعمله ونظره.

إن معرفة أصول وفروع جميع التعاريف الواردة في شتى فروع المعارف الجارية التي هي مقصد نظر وعمل الإنسان العصري المنبهر بالغرب، تشكل عملا ضخما بحد ذاتها، وأن عرضها على محك كلام وسيرة وسنة محمّد وآل محمّد(ص) هو عمل أضخم. إن هذه المعرفة والعرض، تتطلب مجاهدة كبيرة وقناعة قلبية بشأن أحقية معارف أهل البيت(ع) وضرورة التمسك والتذكر بها للخروج من الوضع المؤسف الإنفعالي الحالي.

إن التمهيد لمقدمات هذا الأمر الكبير رهن بالعناية السماوية والتجربة والدرك الجاد لليأس والقنوط من كل ما هو خارج المشرب الحقيقي. ويرى الكاتب أن درك كل هذا هو بمثابة الوصول إلى النهلستية المقدسة ورهن باذن حضرة مولانا صاحبالزمان(ع).

وربما يمكن القول أن هذه هي المكانة التي أتى حافظ الشيرازي على ذكرها في أرجاء ديوانه تحت مسمى مقام الفطنة والدهاء. لقد بلغ حافظ مقام الوعي بحيث أنه جرب النهلستية المقدسة.

ولابد للبشرية أن تتجاوز الباطل كله، وبغير ذلك فانها لن تتحصل إمكانية لقاء مظهر إسم لطف الله، إمام الهداية، إمام الزمان(عج).

وهذا هو الأمر الذي نطلق عليه الإرادة المعطوفة بالحق.

وإن خاطب نيتشة الإنسان الغربي في عصره ب الإرادة المعطوفة بالسلطة، كان حسب تعبير وتفسير المرحوم الدكتور أحمد فرديد، لسبب أنه كان يعتبر هذا الانسان عين الإرادة المعطوفة بالسلطة. ويقول المرحوم فرديد بهذا الخصوص:

إن إنسان اليوم، يجد حالة وكراهية تجاه تلك «الإرادة المتوجهة نحو السلطة». وكيف يمكن تجاوز هذا التوقيت واكتساب الفلاح والخلاص من هذا الهجوم، وهنا يُعتمد «الزمان الباقى»، لكن الزمان الباقى لنيتشة، هو الزمان الفانى وأسير دورة الميتافيزيقيا وما بعد الطبيعة.[١]

إن الانسان الغربي وبعد إعراضه عن السماء وولاية الحق، تحول إلى إرادة تامة لنيل السلطة. إن مصاديق هذه السلطة كانت مختلفة، لكنها كلها، كانت تشترك في

١. اللقاء الفذ وفتوحات آخرالزمان، ص ١٩٢.

الرغبة النفسانية في الإستيلاء والتملك والهيمنة، بحيث أن الثقافة والحضارة الغربية كانت تعرض في حد ذاتها هذه الإرادة السلطوية. إن هذا الانسان، كان يمثل تلك الإرادة المنفلتة عن عقالها والتي حولها إلى موجه وقائد له في ظل تمسكه وتعلقه بالدنيا والسيطرة عليها. الروح المتمردة والحاقدة التي لم تر أي رادع ووازع أمامها للإستيلاء على العالم واعتلاء كرسي السلطة. لإن التوجه العام لهذه الإرادة المعطوفة بالسلطة، أي الانسان العصري، كان نحو الدنيا. لذلك فان كل ما صدر عنه، كان ينطوي على توجه دنيوي بحت.

إن تورط البشرية في السنوات الأخيرة من القرن العشرين، بازمة خانقة، جاء كنتيجة طبيعية لهذه الشمولية والنفس الأمارة الفردية والجماعية للانسان الغربي.

ومن الصعوبة بمكان علاج الواقعة بمدد العوامل المسببة للأزمة، مثلما أنه لا يمكن تهدئة ومعالجة باقي الأزمات الثقافية والأخلاقية الشاملة بمدد علم الإجتماع المتأزم.

إن أي وجه من أوجه الثقافة والحضارة الغربية، كان يحمل في طياته الرغبة في السلطة والقدرة التي تبدي وتظهر نفسها اليوم على هيئة التكنولوجيا والنزعة العسكرية.

إن أيا من سكان غرب العالم وشرقه وحسب رغبتهم العارمة في السلطة والهيمنة والتمتع، يشغل مرتبة من مراتب سير وسفر الانسان الغربي. لذلك فان التعطش لنيل السلطة والتمتع بها، أقض مضاجعهم كلهم.

إن الإنبهار بالغرب، حول سكان شرق العالم وغربه إلى مصاديق مختلفة لهذه الإرادة المعطوفة بالسلطة، بحيث أنهم يشاهدون مستقبلهم في الهيئة العصرية للبلدان التي تسمى المتقدمة.

إن الحضارة والسياسة والاقتصاد الغربي يمثل المصداق الخارجي لهذا الانسان.

وليس من السهل تجاوز هذه الواقعة. وطالما أن البشرية تقيم علاقة مع منشأ هذه الإرادة الشمولية، فانه لا يمكن تجاوزها.

إن السؤال الجاد من الغرب، يُبدي منشأ ومقصد هذه العاصفة. وحسب الاستاذ فرديد، وجدت حالة من النفور والكراهية من الغرب، لكن السؤال الجاد لم يبدأ بعد.

ولا يخفى بان الثورة الاسلامية تحمل في طياتها هذا السؤال. إن جميع الذين يقولون لا لهذه الثقافة والحضارة ولهذه الإرادة الشيطانية، يروون في الواقع في روحهم شتلة الإنتظار الكبير. إن هؤلاء يتبعون رجال الحق الذين لا يركعون في ميدان الجهاد إلا لحضرة الحق.

إن الجهاد الكبير، هو الشرط لإيجاد مخرج من هذا الوضع الإنفعالي.

إن من يدرك ضرورة هذا الجهاد بشقيه الأكبر والأصغر ويثبت في نفسه وروحه العهد مع الصراط المستقيم والإمام المبين وصاحب الزمان وبقية الله الأعظم(عج)، سيلتحق بصفوف المنتظرين بعد خروجه من صف أولئك الذين يجسدون الإرادة المعطوفة بالسلطة.

إن تجديد حياة الإنسانية الحقيقية المدفونة الان تحت أنقاض الرغبة النفسانية والحيوانية، رهن بالعودة والظهور الأكبر لحضرة صاحب الزمان(عج)، لكن المجاهدة والإنتظار والجهوزية، هي تكليف الأناس الذين ينتبهون ويتذكرون الإمام من خلال العودة عن ذاتهم.

إن هذا الإنتظار والجهوزية، يختلفان عن الشعار والإحتفال وتكريم بعض الأيام. إن هذا الإحتفال هو إنعكاس لتلك الإرادة التي تستفيد من فرصة وزمن لهذا التمتع،

رغم أنه يجب إقامة مجالس الفرح والسرور لحضور وحياة إمام الحق ورفع الأيدي بالدعاء لعودته، لكن التواصل والترابط مع ثقافة الإنتظار ومهدي آخر الزمان يتطلب بالضرورة السؤال من الغرب ومعرفة كيفية ظهور وتمدد الإرادة النفسانية والشيطانية للانسان الغربي.

إن هذا الإنتظار هو خاص بالمجاهدين الكبار. وربما لهذا السبب ورد على لسان أئمة الدين(ع) بان الإنتظار هو الحضور في مخيم المهدي(ع) بعينه والجهاد إلى جانبه.

إن الإرادة المعطوفة بالحق، تعكس هذا المعنى والمفهوم عن الإنتظار، لدرجة أن الانسان يتحول إلى مصداق موضوعي لمعنى المنتظر. وفي هذا الوقت فحسب يتم إحياء الانسانية الحقيقية.

إن إمام العصر(ع) هو المظهر التام والأكمل للإرادة المعطوفة بالحق والمظهر التام لأسماء وصفات الحق وخاص بها. لذلك، فان واسطة الفيض وحجة الحق وولي الحق، هو المساند والموجه الكبير للانسان.

إن الأزمة، هي وليدة المواجهة بين قوتين وأن الأزمة الكبرى التي تعصف بالبشرية المعاصرة، حصيلة المواجهة بين إرادة الانسان المعطوفة بالسلطة وذلك الإمام المبين المحيط بعالم الإمكان والمأذون بالتصرف في العالم والهداية والولاية عليه.

إن الإرادة المعطوفة بالحق، هي مواكبة ذلك الإمام الحق ذاتها، والتحرر بين يديه وترك الأنانية في كافة الشؤون الجزئية والكلية.

والمؤسف، أننا لم نكلف ونلزم أنفسنا على مدى السنين الماضية بما يليق ويجب، بثورة كبيرة وجهاد أكبر، واختزلنا هذا المعنى في نوع من المواجهة مع الخصم الظاهر في عالم السياسة. بحيث أننا صببنا جل جهدنا في التشبه في الثقافة والمدنية

بالغربيين المتأزمين. إن نقد أسس ومصادر النظر التي هي الان بحسب غلبة العلوم الحديثة، بتصرف المجالات النظرية للغرب، وأن مراجعتها وإعادة النظر فيها تأسيسا على كلام الله المجيد وأقوال أئمة الدين(ع)، قد أرجئت خلال الأعوام الخمسة و العشرين الأخيرة.

إن هذا الأمر، رهن بالهمة العالية لمجاهدي ميدان المعرفة والعلم الحقيقي، المجاهدة التي تبدأ مع السؤال من الغرب.

السؤال من الإنسان

إن السؤال من الإلة[1] الذي ينادي به الانسان الغربي، يعد السؤال الثاني المطروح على جميع المفكرين لاسيما الحريصين منهم على الحوار حول الصرح المعرفي وعلم الكونيات بمنأى عن شوائب الإنبهار بالغرب.

و هذا السؤال يضع تكليفا كبير على كاهل علماء الدراسات النظرية من بين سكان الشرق الاسلامي الكبير لاسيما أتباع مدرسة أهل البيت(ع).

إن الثناء على الانسان، يوضح كل معنى الوجود وكيفية الصيرورة في التاريخ وعلى امتداد الأرض. ومن هنا يمكن القول أن:

إن الفارق الجاد بين الثقافات والحضارات يمكن البحث عنه في التعريف الخاص الذى يقدمه كل منها عن «الإنسان».

إن الثقافات و الحضارات هي التبلور الخارجي للإنسان، كما أن الإضطراب و الإرتباك والأزمة في العلاقات يعود إلى حجم القلاقل التي تدور في باطن الانسان و الرؤية الكلية تجاه الانسان.

---

١. وفي الحقيقة السؤال من كل ما يقدمه الغرب كإله ومبدأ.

إن المجتمعات الشرقية هي في الوقت الحاضر مرتبكة ومضطربة وسقيمة ومتأزمة. ويكفي أن نزور يوما أحد الشوارع الرئيسية في «بومباي» و «كراتشي» و «دكا» أو «طهران» و سنشاهد مصاديق هذا الإنفعال والإضطراب. إن هذا الوضع يظهر بالمجمل الحالة الخارجية لحشود الجماهير التي تروح وتجئ. إن هذا الوضع بدد الصوت الرخيم المنطلق من ميدان وساحة الحياة المادية لهؤلاء الناس. وكأن جميع عازفي أوركسترا كبيرة، يعزفون باستمرار على آلاتهم الموسيقية من تلقاء أنفسهم ومن دون النظر إلى النوتات أو يد المايسترو وهذا يعني التأزم وعدم التناغم الإيقاعي بين العازفين.

ويمكن إعتبار هذا الإضطراب الظاهر في المدن بانه مؤشر على ضعف التشريع أو سائر إجهزة المراقبة، لكنها متأزمة بمجملها ويمكن دراسة هذا الإضطراب في الساحات الأعلى.

إن هذه المدن قد أضاعت نفسها قبل كل شئ. فهي لا تدري من أين أتت ولا تعطي تعريفا عن ذاتها. وقد تتحدث كل من هذه الجماعات المتشرذمة لساعات عن أنواع التعاريف والفلسفات، لكن هذا الوعي لا يعكس الإنطباع العام عن المعنى والتعريف الثابت والمقبول عن الانسان. إن الإضطراب والإرتباك يسلط الضوء على الساحة الباطنية للانسان قبل أن يعكس وجه العلاقات (وهو ذهاب ومجئ الجماهير في الشوارع أو ...)، إن الإرتباك الخارجي معطوف على الإرتباك الداخلي. وألا يعرف كل هؤلاء مزايا ومضار النظام وعدم الإنتظام وأليسوا مطلعين أيضا على فوائد النظام الاجتماعي ومضار الإضطراب؟

إن هؤلاء يعرفون أشياء بهذا الخصوص وحصلوا على علم وخزنوه في مستودع ذهنهم. إن هذا الوعي عار عن المعرفة. ويمكن مشاهدة علامة ذلك في الكتب والمناهج الدراسية والتعليمية لهذه الشعوب.

إن التلامذة وفي كل ساعة من تواجدهم في المدرسة، ينظرون إلى العالم من منظر ما ويرتوون من منهل، خليط من التعاليم الغربية والشرقية، التاريخ والرياضيات والمعارف وعلم الأحياء وعلم الإجتماع. وهؤلاء التلامذة يتخضعون ويتذللون لله تارة (وبالمناسبة على أساس التعريف الذي يقدمه الغرب عن الله وعرّفوه للجميع)، ويتعلمون لداروين واسميث وكونت وديكارت تارة أخرى، من دون أن يتساءل مؤلفو وواضعو هذه الكتب عن نوع المعرفة وأداة معرفة الكون وأسسه النظرية أو أن يعتبروا نوع المعرفة وأداتها الخاصة مؤثرة في كسب الوعي عن الكينونة وكشف العلاقة بين الانسان وما يجري في العالم المُلكي. وهؤلاء من دون أن يدروا، ينقلوا ارتباكهم الباطني إلى باحات الجامعات والمدارس والأزقة والشوارع وسراي الناس.

ويجب معرفة أن هؤلاء غير مقصرين. إن هذه الجماعة تعلمت بدورها على يد معلمين يتوجه بالضرورة السؤال إليهم.

وعلى أي حال فان تعريف الانسان، هو نتيجة السؤال من منشأ الكون وضروري لفترة العبور.

وفي عموم التقاليد الشرقية والدينية، لا يعتبر الانسان نفسه فاعل المعرفة. إن المعرفة الكلية عن الكون في هذه التقاليد، تقدم للانسان من مصدر اخر خارج عن إرادة وقدرة الانسان. الأمر الذي هو في الأديان السماوية معطوف على الوحي وكلام الأنبياء الإلهيين وبالتحديد لدى المسلمين، مصدر معرفة «القرآن» وكلام المعصومين(ع) المنصوبين من قبل الحق.

وعند الكثير من أهل النظر، فان مجمل المعرفة المتأتية من الفكر البشري والمعرفة حول الأمر الكلي النابع عن الإنطباع الحصولي، تعكس نوعا من الإنبهار بالغرب والأنانية والتحريف والإنتقائية، وتسعى بالضرورة من خلال إزالة الإعتبار عنها والمعارف المنبثقة عن الإنطباع الحصولي، لإيجاد مخرج للخلاص من هذا الوضع ـ الذي يحوي بداخله على نطفة التأزم وعبادة الطاغوت ـ وذلك من خلال الركون إلى الحق والإتكاء على الإنطباعات الحضورية وترى أن بسط المعارف الحصولية يؤدي إلى إبتعاد الانسان عن الحقيقة وتقصير يده في الوصول إلى المصدر الغيبي وبالتالي غروب الحقيقة القدسية خلف سحب الأنانية.

إن الغرب ومع انتزاعه الكرامة المعنوية من الانسان، حوله إلى كائن أناني ومستغن عن الوحي وعن التجربة المعنوية والباطنية، ليواجه في مسار الزمان الكمّي والدنيوي البحت، الرخاء المادي البحت ويعيش بجانب سائر الكائنات «سواء الجمادات والنباتات والحيوانات». إن مجمل نسبة وتعلق الانسان بالرؤية والإنطباع الغربي، عار عن أي وجه سرمدي وإلهي، الكائن الذي يوظف جل إمكاناته وجهده للتدخل في العالم.

وهذا التعريف يجعل من الانسان كائنا ينطوي على مجمل المقبولية والمطلقية ويملك بوصفه قطب الوجود، جل صلاحيات وإمكانية المعرفة، لذلك فانه يقدمه كفاعل معرفي.

إن سلب الإعتبار المعنوي والغيبي هذا، يجعل كل قدرات الانسان محصورة بالتجربة الحسية، ويعتبر هذه القدرات كافية لدرك الكون بالكامل وإبداء الرأي حول العالم والانسان واتخاذ القرار حول موقع جميع الظواهر وعلاقة الانسان بها.

إن الانسان الجديد الذي وطأت قدماه الأرض بعد عصر النهضة من نقرة أنا المفكر المظلمة، لمنظرين مثل ديكارت، ظن أنه اعتلى عرش الحق واتكأ على مجمل الحق ومنشأ الحق، وفتح دفترا جديدا لمعرفة كل ما كان يدور في حواليه مجددا.

وبغض النظر عن المبادئ الفلسفية والأرضيات النظرية الداعمة لهذا الإنطباع، فان تاريخ الأعوام الأربعمائة الأخيرة يعكس مجمل اهتمام الانسان الغربي للتواجد الأناني والعاصي في الأرض. إن هذه الواقعة، ورطت الانسان في حياة هذه الدنيا وجعلته يواجه ما يمكن تسميته التسلية والإنشغال بالوهميات، لكي يمضي قدما في حياته بعيدا عن التعاليم الدينية والتقاليد التي تعتبر القطعية والمطلقية تليق بالخالق الحكيم والعليم فحسب.

إن الرجوع إلى الذات النفسانية وإضفاء المحورية عليها أدى إلى أن يتحول هذا الانسان إلى طاغوت متغطرس معجب بذاته. الوجه المهم الذي تطلق عليه الدراسات الثقافية مسمى المذهب الانساني.

إن إطلاق صفة الحداثي على الانسان، يقدمه على أنه كائن متمرد، يقف بكل ما أوتي من قوة بوجه السماء. إن هذا الإنطباع ينطوي بحد ذاته على نطفة الثقافة وبالتالي الحضارة التي شوهت بظاهرها الانساني، جميع الأوجه المعنوية والتقاليد الإلهية الشرقية وأفضت إلى أن يصب هذا المتمرد والطاغي جل همته لتدمير التعاليم والأعمال الدينية.

إن المذهب الانساني عرض مذهبا جديدا، يجعل الانسان الظاهري النظرة والمتنور، محورا ومنطلقا لكل شئ ومعيارا لتشخيص صحة أي رأي عن عدمه.

إن استخدام مفردة المثقف، كان يحوي هذا المعنى أيضا. الانسان الذي يوجه كل اهتمامه نحو الطبقة الظاهرة للحياة، ويغفل عن الوجه الخفي والباطني والغيبي للعالم، ليحترف السيرمن الظاهر إلى الظاهر ويتعرف على تقليد الحضور في الأرض ويدافع عنه بكل قوة.

إن تجاهل الوجه المعنوي وعلاقة الانسان بالوجه السرمدي والأبدي، جعل كل ما هو سائد في التقاليد الدينية تحت مسمى «النفس الأمارة» يتحكم بمقدرات الانسان.

وفسحت هذه الواقعة المجال لحشد كبير من «الأنا» المنافسة لتصول وتجول في الميادين المختلفة للحياة الثقافية والمادية للانسان وتقديم السلطة والهيمنة كوجهة نهائية لسير وسفر الانسان في الأرض وأن يحل التقدم المادي البحت محل أي نزعة ورغبة لكمال التقاليد الدينية.

إن إبتعاد العلوم والفنون عن المعنى والمعنوية والتوجه القدسي نحو العالم وضع أداة بتصرف هذه الأنا النفسانية لتكون سببا للكثير من الإعوجاجات والإضطرابات وتؤدي إلى إنتزاع أي إمكانية من الانسان لدرك أي انطباع غير مادي وغير وهمي. إن المكاسب الجديدة التي هي بمجملها حصيلة العلوم الجديدة ودنيوية فحسب، سلبت من الانسان كل إمكانية درك جوهر الوجود وتؤدي إلى أن يوجه جل إهتمام الانسان نحو الإعراض.

وعلى مدى الأربعمائة عام من تاريخ الغرب، يتحدى الانسان، الله للتغلب عليه كاسرائيل التوراتية ويطرحه أرضا. وبحسب تعبير الأستاذ فرديد: إن هذا التاريخ، هو تاريخ إنعدام التقوى.[1]

---

١. اللقاء الفذ وفتوحات آخرالزمان، ص ٢٧٧.

وهذا الانسان والطبيعة اللذان يتنازعان معا وتنشأ الحضارة من رحم هذا النزاع. إن هذه الحضارة غير إلهية في ذاتها. وفي هذا الصراع، يزيح الانسان، الله من الميدان لكي يبقى بمفرده ويبني من خلال العبث بالطبيعة كل شئ حسب شريعته ويغيره حسب شهواته. ومن هنا فان الانسان يصبح مصدر ومنشأ الفسق والفجور.

وهدف الكتاب ليس إعطاء وصف شامل عن النتائج المتأتية من التغير في تعريف الانسان، بل المراد التذكير بالأوجه القابلة للتأمل لتيارين. تيار خفي ومتستر في كنف التاريخ الغربي (الفكر والثقافة والحضارة الدينية) وتيار سارٍ (الفكر والثقافة والحضارة الغربية) والذي أبهر الكثير من سكان الشرق رغم أنه يقترب من نهايته، وسلب منهم الإذن بالسؤال خلال القرنين الأخيرين.

إن الانسان في التقاليد الشرقية وبصفة عامة التقليد الديني، هو مسافر وطأت قدماه الكرة الأرضية لدرك وتجربة الأبدية، فلا هو مخلوق مادي بحت ولا كائن سرمدي وأبدي بحت وبمستوى الملائك والأرواح. ولابد له من الإستعانة بالوحي من أجل بلوغ المنزل المقصود وتجربة الذات المطلقة.

إن هذه التجربة لا يمكن أن تتحقق من دون تخطي الذات والتضحية بالذات على عتبة عالم المعنى والسماء، لان هذه الواقعة الشريفة وحدها التي تنقذه من القيود وتضفي عليه وجه فنان ورع ومتق وصاحب فضيلة.

ويقول الأستاذ فريد بهذا الخصوص:

لقد أستخدمت لفظة «هنر» أى الفن فى اللغة السنسكريتية، وتحولت إلى «سونر» و «هونر» أى «نَر و «نَره» تعنى باللغة السنسكريتية الرجل والمرأة، وسونر تعنى الرجل الطيب وسونره تعنى المرأة الطيبة. وتطلق

لفظة «هنرمند» على كل إنسان، رجلا كان أو إمرأة. وتحولت السين فى الفارسية إلى «هـ». وعندما تستخدم كلمة «هنر» فى الفارسية تعطى معنى عاما. ولم يكن «هنر» أى الفن مطروحا فى الاسلام بشكله الجديد وبمعناه العصرى. ولفظة «هنر» (الفن) فى الحرب تعنى «الشجاعة»، وعندما يستخدم فردوسى لفظة «هنرمند» فانه يعنى «الانسان المقدام». لكن اللفظة تجد معنى اخر فى الشعر القتالى والمهرجانى والتصوف. وفى الحكمة المعنوية فان «هنر» تعنى التقوى والفضيلة أى الانسانية. وإن نظرنا إلى الآداب، فانه تم تقسيم الفن. دققوا النظر فى أشعار فرّخى والاخرين.

إذن الفن، يعنى الفضيلة ويعنى المروة ويعنى أن أى امرأة تقوم بواجباتها كانسانة وأى رجل يقوم بواجباته كانسان. ويرفع مولانا من مقام الفن ويقول:

ما إن حل الغرض، اختفى الفن

و وضع مائة حجاب أمام العين

والسير في العالم لم يكن من دون غرض

بغير جسم وبغير روح العشاق

لقد نجيت من الماء وأسير كالملك

و أسير في هذين الإثنين كالفلك وبلا غرض

وهنا، يأخذ مولانا عبارة من الفن ليطلقها على المرتبة التى ينالها الإنسان، أى أكمل الكمال الانسانى، أى السير من الخلق إلى الحق. لكن الفن الحديث كله غرض، وكله إشباع للرغبات الشهوانية والنفسية.

«وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا»[1]. **إن الفن الجديد، تكمن ذاته في الفجور.**[2]

إن مجمل تعلق ونسبة هذا المخلوق الكائن، منصب على النظام الخالد والأبدي والذي يحصل على وعي بشأنه عن طريق الوحي. إن الوصول إلى هذه المرحلة وتجربتها، بحاجة إلى قدرة وقوة خاصة أودعها خالق الكون مسبقا في روح الإنسان.

إن هذه الدرة الثمينة والجوهرة الغالية، تجعلان الانسان ينتبه ويتذكر بين الأزل والأبد الحقيقة وسر الوجود.

إن هذه النسبة التي توهب للانسان حسب التعاليم الدينية، عن طريق النفخة الرحمانية وتجعله جاهزا ومكلفا بالقبول التعبدي لأحكام خالق الكون والوجود المطلق لكي يجد من خلال الإستعانة به وعنايته، إمكانية العبور من العالم المُلكي.

إن التمسك والتوسل بكل ما كلف الانسان به في التقاليد الدينية، يعينه لكي تجاوز في تراتيبية الوجود، الظاهر والتجربة الخارجية للحياة ويرتقي كمسافر، منزلا بمنزل لينفذ في الإنخراط في الحق (وفناء في الله) في سرمدية تجعله في أمان من أي تغيير وتحول وتجعل الحياة إلى الأبد من نصيبه.

إن هذه القوة الذاتية للعروج والتجربة المعنوية ، يحولها الله من الكمون إلى الفعل من خلال الإعلان عن الأحكام والتعليمات المقدسة ودعوة الانسان (عن طريق الوحي والأنبياء) لقبولها، لكي يتمكن من إقامة ارتباط بالذات السرمدية والتخلص من الحياة الوهمية إلى الأبد. ومن هنا، فان سيره دائما من الظاهر إلى الباطن.

---

۱. سورة الشمس (۹۱)، الآيتان ۷ و ۸.
۲. اللقاء الفذ وفتوحات آخرالزمان، ص ۲۷٦.

وبالنسبة للتعاليم الدينية المقدسة، فان الانسان ليس كائنا أحادي الساحة بل كلية تتشكل من الجسم والنفس والروح. العالم الصغير الذي يعكس معه وفي ذاته، مجمل أوجه العالم الكبير. وفي هذا الإنطباع، فان الاساس ليس مبنيا على تدخل الانسان وتصرفه في العالم، بل أن العالم منزل للعبور ومزرعة للزرع ومن ثم الرحيل. لذلك، فان الناشئ في هذا التقليد، لا يعتبر السلطة والقوة غايته ومقصوده ، لانه في هيئة انسان متكامل، وبوصفه وسيطا بين السماء والأرض، يكون خليفة الله ويعكس جميع الصفات والأسماء الإلهية، وهذا المقام يجعله مسؤولا أمام الله.

وفي التقاليد الدينية، فان جسم الانسان يحمل قوى متعددة ومختلفة. إن هذه القوى تمنح إمكانية درك ارتباطها بسائر الكائنات وحقيقة الوجود، بل وتمنحه إمكانية درك حقائق الكون وكشف سر الكينونة ونيل مقام الولاية العظمى والفناء في الله وبالتالي بلوغ الإقامة إلى الأبد بجوار الرحمة الإلهية.

إن الطبيعة المقدسة، تمنح الانسان إمكانية مواجهة النزعة الدنيوية المحضة وتسهم في أن يتمكن الانسان العاصي من العودة والإنابة مجددا.

إن المقام والشأن المحددان للانسان في التقليد الديني الاسلامي، يظهر نفسه بشكل أعمق وأوسع من كل ما هو سائد في سائر التعاليم الشرقية، بحيث أن قسما كبيرا من «القرآن الكريم» وتوجيهات النبي الأكرم(ص) وأئمة الدين(ع) مخصص لهذا الغرض، لكن الملفت في مقام الولاية والتولية والإشراف والتربية والانسان المتكامل الذي يعد مصداقا تاما لخليفة الله هو أنه يقع نسبة إلى صنف الانسان بل عامة المخلوقات، في المرتبة وحد الاتصاف بالصفات السامية والأكمل والأغنى والأرفع، بحيث أنه في جميع الصفات الكمالية للكائنات، أشرف وأفضل وأوسع

وأعلى وأكمل. إن هذه المرتبة منحت من قبل الله تعالى باعتباره حقيقة الحقيقة المطلقة للانسان وجعله وسيطا لكافة الفيوضات الرحمانية وقطب رحى عالم الإمكان، ومركزها والاية الإلهية العظمى والمثل الإلهي الأعلى.

إن الانسان المتكامل يعد في سير المراتب، وليا ومساندا ونصيرا ومربيا للاخرين من بين الأناس ما بعده، لكي يوجههم بوصفه هاديا ومهديا، نحو منزل السعادة والعبودية والكمال. ولذلك وبسبب الأفضلية، فان سائر الكائنات ومن بينهم الانسان، تابعون له ومكلفون بتبعيته لتتحصل إمكانية العبور من بيداء الأرض من خلال اكتساب الكمالات والصفات الإلهية العليا.

السؤال من الطبيعة!

إن السؤال من الطبيعة هو بمثابة السؤال من مكانة وشأن الطبيعة وعلاقتها في نظام نظري ما مع الانسان ومبدأ الوجود.

إن توجه الانسان نحو الطبيعة وكيفية تعامله في نسيج متناسق وموحد، يتوقف على التعريف والمكانة اللتين يتحصل عليهما وفق انطباعه الكلي عن الكينونة والطبيعة والعالم.

إن الجانب المهم من الإضطرابات والأزمات التي تعترض العلاقات الفردية والاجتماعية للانسان، يكمن في الأوجه الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية المختلفة، في كيفية دركه وفهمه للطبيعة.

إن الطبيعة هي مسرح واسع يتواجد فيه الانسان ويلعب فيه دورا ويتشابك مع عوامل وقواه الباطنية والخارجية، ويتعرف على ذاته ويتعاطى وينمو، ويكتسب الكمال ويجرب حصيلة التعلامات المختلفة. ولا يمكن التغاضي عن كل هذا، وتجاهله والتعاطي معه بتقاعس. فهو ليس شيئا طفيفا على هامش الحياة حتى يتسنى للانسان تجاهله.

وما أن أبصر الانسان النور، وجد أن الطبيعة هي أول موطئ قدم له واندهش أمام عظمتها واتساع نطاقها، وكافح عواصفها وأعاصيرها واستمتع بمشاهدة غروب الشمس وشروقها وتفتق أرضها بالزرع، وحاورها في خلوته ووحدته وفي أعقاب السؤال الكبير الذي ينبع من صدره، يسأل نفسه: من أنا؟ وما أنا؟ وما علاقتي بهذه الطبيعة و...؟

إن التواجد بلا وسيط في الوجود في الأيام الاولى من بدء الحياة وحتى قبل نشأة الميتافيزيقيا بوصفها سبيلا للرد على اسئلة الانسان العامة وتعامله الحميمي مع الطبيعة، وضع إنطباعا ورؤية أمامه توفر إمكانية الوصول إلى أجوبة تبعث على الطمأنينة والسكينة. حكمة منزهة من شوائب العلم الحصولي وأي تعليم انساني بحت.

وكانت الطبيعة بايقاعها المتناسق والتناسق الممتع للألوان والإنعكاس الموزون والمتكرر للأحداث والأصوات التي تضرب بجذورها في روح الوجود، ترد على بعض الأسئلة النابعة من الوجود المضطرب للانسان، رد واضح لمتسائل كان يسأل: من أنا؟ ما أنا؟ من أين أتيت؟ وما هي وجهتي؟ أجوبة كانت تميط اللثام عن الأسرار.

وتشير الطبيعة على صفحتها الشفافة والصافية إلى سر المطر وسر العاصفة وسر الزلزال وسر الخضرة والجسامة وسر الإرتفاع وسر الألوان والروائح وسر مجئ الانسان ورحيله في مسرح الطبيعة والكينونة، لكي يصبح الانسان هذا الكائن المتسائل الذي يسأل من دون أي قصد وغاية ورغبة في التملك والتصرف والسلطنة، متناغما ومتسقا مع الإيقاع العام للوجود كمسافر يتنقل من محطة إلى محطة ويصغي بأذن روحه إلى سر الوجود.

وفي عامة الأعمال الأسطورية الشرقية القديمة، فان الطبيعة تبين بلغة يكتنفها الغموض، الوجه الباطني للوجود وتشير إلى تعلق كل العناصر والظواهر بعالم ماورائي تطغى قدرته وعظمته على مجمل الكون والطبيعة. وكل ما يؤتى على ذكره تحت مسمى الرؤية الأسطورية، يعكس الإرتباط الدقيق والمنسجم القائم بين ممارسات الانسان وردة فعل الطبيعة والسنة الثابتة التي لا تتغير والتي لا يمكن العدول عنها، فيما يميط الانسان اللثام عن هذا الإرتباط والنزعة القانونية من خلال حضوره الواعي في الطبيعة وتجاربه المتتالية مستعينا باصراره على ذلك ويجعل نفسه متسقا معها لكي يكون بمأمن عن ممارساته.

إن المطر والعاصفة والأرض في هذه الرؤية، ليست منفلتة العقال ومتروكة لشأنها ولا تخضع لقانون وقاعدة، إذ أن أيا من المخلوقات يحظى بدرجة من الفطنة والروح الواعية، وترسل بطريقة ما إشارات إلى الانسان لكي يكيف نفسه مع مجمل الكون والعالم الهائل والواسع.

وتنطوي الطبيعة على تجليات لمبدأ كل، إنعكاس لعالم واسع وشاعري. وربما لهذا السبب، تحمل الأشجار والجبال والصحارى وكل من الظواهر لدى الأمم السالفة، وجها مقدسا أو مشؤوما وغير مبارك، ويعتبر الانسان نفسه ملزما بحراسة ما هو مقدس وصد ما يعكس الشؤم والدناءة. إن أمواج هذه الرؤية تجتاح مجمل الطبيعة وحتى أنها تغطي الطيور وسائر الحيوانات.

وفي الرؤية الأسطورية الإيرانية التي يمكن ملاحظة جزء منها في الأعمال الملحمية بما فيها «الشاهنامة» للحكيم فردوسي طوسي، فان الفضائل الإلهية (آهورا) والرذائل الشيطانية (أهريمن) منتشرة على نطاق واسع في العالم وأن كلا

من الكائنات تحمل في حد ذاتها وجها من هذه الصفات. إن «ايران» البلد الآهورائي (الإلهي) يرتبط بالنور ويعيش في جدال دائم مع «توران» التي تحمل الرذائل الأهريمنية (الشيطانية)، وكذلك فان الأبطال الأسطوريين يحمل كل منهم هذه الأوجه، والانسان يُقدم على أنه بطل يشرف على هذه الصفات ويحمي الفضائل ويجاهد في طريق النور والضياء.

وفي الديانة الزرادشتية، فان الأرض هي ملاك ظهر على هيئة هذا العالم، مثلما أن الزهور تمثل رمزا لحقيقة جنائنية وسماوية.

وفي جميع التقاليد الشرقية، فان التصرف في الطبيعة رهن بمراسم خاصة، يسهم حراستها، في حماية الانسان من الإنزلاق في براثن الآفات والأضرار التي تعد ردة فعل للطبيعة. لذلك فان الديانات المقدسة، يمكن ملاحظتها في ترابط يكتنفه الغموض مع الطبيعة والانسان.

إن مجالس السرور والعزاء، تحمي القوانين والتقاليد الثابتة للوجود. إن هذه المراسم والتقاليد، ترفد الانسان في الرجوع إلى المبدأ وحمايته، وتوفر إمكانية ديمومة النسبة بين الانسان والطبيعة وذلك الكل الواحد الذي هو مصدر جميع الصفات. إن إحتفالات «سدة» و «مهركان» و «نوروز» هي جزء من هذه الإحتفالات.

إن التقاليد الدينية الشرقية والاسلامية ـ وبعد الإنطباعات الشاعرية الشرقية عن العالم، يمكن دراستها بصورة مكتوبة على المستويات الثلاثة العقائدية والثقافة والأعمال والاداب ـ تنطوي على نظرة وانطباع خاص ومختلفة عن كل ما هو سارٍ في تاريخ الغرب على مدى الأعوام الأربعمائة الاخيرة.

إن أبرز أوجه هذا الانطباع يكمن في الإهتمام بالشأن المعنوي للطبيعة، والذي أخرج الطبيعة من اعتبار كمّي ومادّي وأرضي بالكامل، مثلما يظن الغرب، وأضفى عليها شأنا إلهيا وسماويا.

إن هذه النسبة، تُظهر تواصل الطبيعة مع كلّ واحد وحقيقة الهية وتقدم في مجموعة متناسقة، صورة عن عالم كبير يحمل ويحوي مجموعة أسماء وصفات الحق تعالى، مع اختلاف أن صفة المطلقية، متعلقة بالمبدأ الإلهي فحسب.

إن الشأن الإلهي، يصنع من الطبيعة جسرا يمكّن الانسان من السير في عالم المعنى.

وفي التقليد الاسلامي، فان العالم مزرعة، ينثر الانسان في باطنها بزرة مواهبته وعمله، ليحصد فاكهتها وثمرها بعد بلوغ عالم الملكوت وأرواح الجنة السرمدية. إن هذه الموهبة التي أودعها الكل المطلق في باطن الطبيعة، تُظهر الطبيعة على هيئة المنذر، يستفاد الانسان من كل ورقة من أشجارها وزهورها، لاستخلاص درس الوجود والصيرورة.

إن هذا الانطباع يصنع من مجمل المخلوقات، ذاكرا مسبّحا. «يسبّح ما في السموات والأرض» تتحرك في السير التكويني من المصدر الغيبي نحو المكمن الغيبي. «إِنّا لِلّهِ وَإِنّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ».

إن النسبة الحقيقية والمشتركة للانسان والطبيعة مع مصدر الفيض، يوفر تواصلا ذا مغزى ومرجو وباعث للسكينة والإستقرار بين هذين الإثنين، بحيث أن هذا الميل الذاتي، يتصرف كقوة دافعة قوية، تدفع الانسان نحو الجبال والصحراء والسهل للنجاة مما هو غير ذي صلة بروحه. وفي هذا الوضع، فان الطبيعة لتقدم

للانسان إمكانية التأمل والتذكر والإصغاء إلى نداء الروح الإلهية والموسيقى الملكوتية الرخيمة. لذلك فان أيا من الذين يعيشون في الشرق وتقاليده، يحملون روحا وفهما خاصا بهم وبما يتناسب مع اتساع نطاق وجودهم، روح واعية ومسبحة وحسبما يقول الشيخ الأجل سعدي الشيرازي في الباب الثاني من كتابه «كلستان»:

«... رأيت البلابل تغرد وتئن على الأشجار والحجل فى الجبال والضفدع فى الماء والبهائم فى الغابات، فكرت: فليس من المروءة بمكان أن يسبح الجميع وأعيش أنا فى غفلة من الدهر».

إن هذا الإستنتاج ينتزع من الانسان الإذن باي تطاول وتجاسر على الطبيعة. إن العالم بمجمله، آيات الله البينة وعلائم مبينة تجسد بباطنها وذاتها جلال الله وجماله.

ويمتزج الجلال والجمال معا في الطبيعة. إن هيبة الجبل وأزيز العاصفة ولطافة الندى وورقة الشجر، يبرز كل منها وجها من الأسماء والصفات الكمالية لكي تنبثق الحياة وسر الحيوية وأن يعيش الانسان بوعي وتيقظ في ساحة الطبيعة والعالم, ويكتسب تقاليده ويكيف نفسه مع إيقاعها ولحنها الموسيقي ليصل إلى الباطن والمعنى بعد تجاوزه الظاهر.

إن النظرة الأدواتية والكمية البحتة إلى الطبيعة بحسب غلبة التاريخ الغربي، قلص من شأن الطبيعة وأدى انتزاع الإعتبار المعنوي عنها، إلى إظهار أن كل الخلائق والكائنات هي أشياء بلا روح ومادية وغير مترابطة مع بعضها البعض.

وهذا الحكم أطلق يد الانسان في التصرف والإستهلاك الحر للإفادة منها باي شكل تمليه عليه نفسه الأمارة.

إن التطاول المنفلت على الطبيعة ينطوي في حد ذاته على إضطراب في الإيقاع الرخيم للطبيعة وروح الانسان. ولذلك، فان الأساس الأخلاقي تراجع وتراخى بسرعة وأصبح الانسان بلا هدف ويواجه أزمات.

إن الأنانية أذكت الأمراض الفردية والإجتماعية كما أن النظرة الأحادية إلى الطبيعة أدت إلى انهيار الجسر الذي كان ينقذ الانسان من بؤرة الأزمات ويمنحه إمكانية الولادة مجددا قبل ملاقاة الموت المحتوم.

وصنعت هذه النظرة تجاه الطبيعة، من التملك والإستيلاء مقدمة للسيطرة بلا منازع ومن السلطة أداة لإستمرار هذه السطيرة.

وانغلقت آذان معلمي ومبشري العالم الجديد على رسائل الطبيعة لكي يبقى من كل هذا التسبيح والذكر والاسم والصفة والإيقاع، عين ترى الظاهر فحسب لتشهد الصراع من أجل البقاء. وهذه النظرة حولت الهمجية والوحشية إلى قانون ثابت ومقبول لدى الانسان الجديد. لكي يفتك ويسحق جميع الشؤون من أجل التمتع والتصرف واكتساب المزيد من النفع.

إن الغرب والعلوم الحديثة المبنية عليه رفض من خلال تقديم تعريف رياضي بحت عن الكائنات، أي نسبة سماوية حول منشأ الطبيعة ليجعل أوهاما مثل المذهب التجريبي البحت، أساسا لنظر وعمل الانسان لمواصلة الحياة.

إن هذا الانطباع الآلي والكمّي، أعطى إعتبارا مزورا للأرقام والأعداد والإحصاءات لكي يفسح المجال للانسان الغربي ليتطاول على المقدسات والتقاليد الدينية.

وحدثت ميلان في رؤية الانسان تجاه الكون وعمله في الطبيعة، فأفرز الأزمة. إن الأزمة البيئية وتلوث البحار والسماء والمجاعة والأمراض الفتاكة والشعور بالفراغ والتفاهة واللا أدرية وهيمنة الطغاة والجبابرة من حماة المستعمرين والامبريالية والإبتعاد عن المعنى والمعنوية، تعد كلها حصيلة هذا الميلان الكبير.

إن سكان الشرق الكبير بمن فيهم المسلمون، لم تتح لهم أبدا إمكانية طرح السؤال الكبير من الغرب. فقد حدقوا بالمنجزات المادية والحداثة بحيث أنهم غير جاهزين اليوم حتى لنقد الغرب علميا وبصورة جادة، إنهم ينظرون إلى مستقبلهم في الغرب ويحاولون بجانب الغرب تجربة جميع مجالاته الثقافية والمدنية. إنهم سيجربون بلا شك مجمل الأزمة الناتجة عن ذلك.

إن السؤال من الطبيعة، ينطوي على دراسة نظر وعمل الانسان الغربي على مدى الأعوام الأربعمائة الاخيرة حول الطبيعة والعالم، وكل المنعطفات التي يبدي المفكرون ارائهم ما وفر إمكانية تغير رؤية وانطباع الانسان من الانطباع التقليدي والمستند إلى النظرة الدينية إلى العالم، إلى إنطباع كمّي وعلماني. الآراء التي ملأت باسم العلم، جميع الفصول الدراسية والكتب والصحف وسائر وسائل الإعلام. الاراء التي أطلقت يد الانسان للتدخل والتصرف في الطبيعة وأضفت مشروعية على ذلك.

إن السؤال من الطبيعة ينطوي بالضرورة على مراجعة وإحياء جميع الإنطباعات التقليدية الشرقية والدينية التي تم تجاهلها. وحتى ذلك الحين الذي ينقل فيه تحول كبير، الانسان من الممر الضيق والمظلم لأنانية السنوات المتبقية من تاريخ الغرب، إلى الساحة الوضاءة للتاريخ الذي يبدأ باسم الدين والحق، فانه يجب الإنتظار، لكن هذا الإنتظار يجب أن يقترن بالتفكير والجهوزية والمجاهدة الكبرى.

إن هذه المجاهدة التي تجعل الانسان المنتظر يغادر الأنانية ويتخلى عن انتزاع الإعتبار عن ذاته، ليكون حينها جاهزا لتجاوز الظاهر والإنبهار بالغرب عسى أن يظهر له الحق والحقيقة على يد الإمام المبين.

السؤال من العلم الحديث والعالم الغربى!

إن ما أسلفنا، يؤكد بان الوضع المزري الذي يلقي بظلاله على مدى السنين الماضية والقرن أو القرنين الأخيرين على الحياة الثقافية والمادية لسكان الأرض وعلى وجه الخصوص الشرق الكبير، هو حصيلة ونتيجة الغفلة عن التساؤل. إن هذه الأمم وكبار أهل علمها وثقافتها، يعتبرون أنفسهم في غنى عن السؤال ويرون أن لابد لهم السير في الطريق الذي حدده الغرب لهم.

إن السؤال عن الموضوعات الرئيسية الثلاثة أي مبدأ الوجود والانسان والطبيعة، ينطوي في حد ذاته على تساؤلات أخرى. إن السؤال من العلم الجديد ومبادئه وأسسه والسؤال من التكنيك وطبيعته والنسبة التي يقيمها مع العلم الجديد والانسان والسؤال من الوجهة والملاذ الذي يعتبره الغرب مرجوا ومنشودا بالنسبة له، يعد من التساؤلات الجادة التي نواجهها، إذ أن الرد عليها يمكن أن يضطلع بدور أساسي في الوضع الذي تمر به البشرية.

وثمة علاقة وثيقة دائما بين معنى الوجود وكيفية الوجود. وعلى أي حال فان الانسان غير قادر على الحركة من دون امتلاك معنى واضحا عن الوجود. إن اللجوء إلى التفكير وحده كفيل بان يقبل قوم ما كل ما يعتبره الغرب معنى للوجود

وبالتالي يقومون بتقليد وتكرار كيفية الوجود والسير في التاريخ بما ينطبق مع أولئك.

ولذلك نرى أن سكان الشرق ينظرون إلى مرآتهم في مرآة الغرب وينجرون كالطفيليين وراءه.

إن إرساء مشروع مختلف ونزيه عن شوائب الإنبهار بالغرب في النظام المعرفي، هو بمثابة بناء عالم مختلف جوهريا عن العالم الغربي.

إن ما يطرح اليوم في الميادين الثقافية والعلمية المختلفة، متأثر بالنظام النظري وميثودولوجيا الغرب، حتى عندما يتم الحديث عن الدين والله والاسلام. إن تدنيس ساحة الحوزات العلمية للبلدان الاسلامية بكل ما يجري بحثه في إطار الدراسات الانسانية والإجتماعية، سواء علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الانسان والسياسة وما شابه ذلك، هو بمثابة إزالة العقبات وفتح مدخل يحتوي على أنماط مختلفة من الإختلاط والإنتقائية النظرية والثقافية.

إن تشابك وتماثل علم الانسان وعلم الكون الحديث مع العلاقات الفردية والاجتماعية لانسان العصر الحاضر، تسبب بالتزامن مع الإنفعال والغفلة الشاملة في وقت المواجهة مع الغرب، في التمهيد لغلبة النظام النظري والثقافي الغربي في الحوزات الدينية. إن حوزات العلوم الدينية وقبل أن تهتم بشكل جاد بتحديد الغرب والسؤال منه، تقبلته فيما وفرت العوامل التالية أرضية هذا الإختلاط والإنتقائية أكثر فاكثر:

١. تأسيس الجامعات الحديثة على يد بعض علماء الدين والمنتمين لحوزات العلوم الدينية؛

٢. إنضمام جمع غفير من طلبة العلوم الدينية إلى الجامعات ومشاركتهم في الفصول الدراسية لعلماء الاجتماع وحتى علم أديان المثقفين والممارسة في علم المنهج الخاص بهذه العلوم؛

٣. دخول موضوعات مثل علم الاجتماع وعلم النفس وحتى الفن والاداب الحديثين إلى الحوزات العلمية؛

٤. تعرض هذه الحوزات لعلم المنهج الغربي في مجال البحوث وغلبة البحوث المنجزة على الطريقة الغربية على الدراسات الاسلامية؛

٥. إستخدام المتحدثين والخطباء والكتاب والمدرسين وطلبة الحوزات العلمية لمصطلحات وألفاظ وأسماء وتعاريف المجالات النظرية الغربية من دون الإهتمام بما تحمله هذه المصطلحات من معنى ومفهوم وتأثيرها في نشر الإنتقائية؛

٦. تأسيس مراكز البحوث الحديثة بنفس الأسلوب الغربي لاسيما في مجال علم المنهج والفروع التي تنجز بحوث بشأنها في الحوزات العلمية وإيفاد الطلبة إلى البلدان الامريكية والأوروبية لتعلم العلوم الغربية.

و بالضبط في الوقت الذي يكابد فيه الغرب للتخلص من نقمة الثقافة والعلم و الحضارة العصرية والتهرب من العقل الكمّي والنظام الرياضي المفروض على الوجود والفراغ الرهيب في الدين والشعر والإحساس والعشق، فان الحوزات الدينية في البلدان الاسلامية، جعلت أدب وأدبيات العصر الحديث بما تنطوي على كم هائل من الأرقام الإحصاءات والأعداد، إمامها عسى أن تتمكن عن هذا الطريق وبعد إثبات شخصيتها ووجودها ـ وعلى النمط الغرب ـ تحرير نفسها من قيد عدم النمو والإتهام بالتخلف عن ركب الحضارة، وحتى بالتالي أسلمة الغول الغربي.

إن هذا الكاتب لا يرى أنه جاهز ومكلف بتبني هذا النظام النظري الكوني، وهو قادر فقط وحسب دركه لما حل طوال القرن أو القرنين الأخيرين بالشرق - وامتثالا وتقليدا لاساتذة كبار بمن فيهم المغفور له السيد أحمد فردید ـ أن يطرح بداية السؤال والتذكير بضرورة ذلك، بحيث أنه أتى في هذا الكتاب باختصار وبصورة تطبيقية على ذكر أوجه من كل هذا.

إن وقوع الانسان الغربي في فخ العقل المشترك[1] أدى إلى أن يُرسي الغرب وبشكل تدريجي، النظام الرياضي وأحادي الساحة، للكون والوجود، النظام الذي تعيش فيه المخلوقات معا لا في تناسب طولي بل في تناسب عرضي. وتسير في العالم المادي من دون أي اعتبار قدسي ومعنوي وتتمتع بالبداية والوجهة الدنيوية البحتة.

وهذا الوضع تسبب بحدوث العالم الذي نسير فيه نحن اليوم، أي العالم الغربي. العالم الذي وفره الانسان الغربي على مدى أربعمائة عام وما يمكن أن يسهم في ديمومته وبقائه وما يتطلب استمراريته والسير فيه.

وقد افترض سكان الشرق ومن منطلق الغفلة، إعتبارا مستقلا للملزومات والأدوات التي كلها حصيلة ومنتج التكنولوجيا والعلم الغربي الجديد، وقد استخدمت هذه الملزومات من قبل الجميع في شرق العالم وغربه. لكنها كلها ضرورية للعيش في العالم الغربي، بحيث أنه حيثما حلت التكنولوجيا، ترسخت الآداب الخاصة بها. إن هذه التكنولوجيا تقوم بنقل ونشر الأدب المناسب والخاص بها ألا وهو أدب العيش والوجود في العالم الغربي.

---

١. وثمة مراتب للعقل. وأعلى مرتبة له، هي عقل الهداية وهو عقل الأنبياء وهو عقل العقل. أما العقل النازل هو العقل المشترك الجماعي. وبدأ هذا العقل في العصر الجديد منذ عهد ديكارت. إن العقل المشترك هو عقل متقولب ومجرد. «اللقاء الفذ وفوحات آخرالزمان»، ص ٤٢٧.

والمؤسف أن الغفلة عن هذه الحالات أدت إلى أن نظن بانه يمكن العيش في عالمين مختلفين ومتعارضين أحيانا. وربما نتصور بان العالم الغربي هو نفسه العالم الديني.

إن التكنولوجيا هي الإبن المباشر للعلم الحديث. العلم المبني على النظرة الكمية والرياضية البحتة وبجوهر غير مقدس وعار عن الإعتبار القدسي والذي يعتبر العالم المادي أشرف وأفضل كل العوالم، ولذلك أدى إلى نشوء عالم من هذا القبيل.

وهذا الكلام يؤيده العديد من كبار المثقفين الغربيين، من أن العلم الغربي هو دنيوي في جميع مراتبه:

... إن العلم الجديد ليس نسخة عن عالم الطبيعة، بل ظهر فى عالم خاص وفى هيئة رياضية: إن جعل العالم والكائنات رياضية لا يعنى بالضرورة إماطة اللثام عن الحقيقة القائمة التى بقيت لحد الان خافية عن أعيننا، بل على العكس، تعنى النجاح فى بناء العالم الذى يجب أن يبنى. ويتبنى العلم هذه الوظيفة ويقوم فى ظل الهداية ببناء قواعد يتبعها فى العمل عن طريق العملية المعقدة للإستنساخ وجعل عالمه رياضيا.

والعالم الذى يتحصل بهذه الطريقة، هو حصيلة جدول أعمال وأسلوب خاص. نسيج من المفاهيم التى لا يجب اعتمادها كحقيقة. لذلک فان العلم الجديد وإطلاق الاسلوب العلمى، يجب أن يحصل قبله تغير فى رؤية وانطباع الانسان عن الوجود وظهور الرؤية الرياضية للكائنات».[1]

---

١. الحاجة إلى العلم المقدس، ص ١٧١.

وبما أن الغاية من هذا العلم هي التنمية المادية والهيمنة، فانه يستفيد من الأعداد والرياضيات كمفتاح لفك أقفال العالم المادي والهيمنة عليه ويعلن براءته من أي أمر مقدس. إن هذه البراءة من كل ما هو مقدس، توفر إمكانية تامة للانسان الذي يسير في العالم الغربي لكي يستولي من دون أي وازع ورادع على كل شئ. لذلك فان هدف العلوم الجديدة، هو الربحية والمنفعة والسلطة والهيمنة.

إن الغفلة عن التناسق والوفاق المعنوي والإيقاع القدسي الرخيم بين الانسان والطبيعة على مر السنين الماضية، مهد لاندلاع الأزمة والإرتباك البيئي. مثلما أن الغفلة عن النسبة القائمة بين الانسان والطبيعة ومبدأ الوجود، أدت إلى التغاضي عن وانكار النظام الكوني ذي المغزى والساري والجاري والحي ومجمل الوجود. إن قيام هذا العلم على أساس الحس والإستدلال الكمّي أدى إلى تجاهل القوى الباطنية بالكامل.

إن العلم الجديد مبنى على المذهب الإستدلالى النابع عن النظرة العالمية الفلسفية للقرن السابع عشر للميلاد واعتماده على العقل الانسانى بوصفه آخر معيار للحقيقة وتقييد الحقيقة فيه فى الحدود المادية واقتصار العلاقة بين الانسان والطبيعة فيه على مستوى الحس والإستدلال الذى يجرب نتائج الإنطباع الحسى.[١]

ومن هذا المنطلق فان العلم الجديد يفتقد إلى الوجه الفني، بحيث أن الملم به لا يبحث عن علاقة بين كل ما يطلق عليه اسم الحقيقة وبين الحقائق المعمقة والجارية في عالم المعنى، ولا يعتبرها أصيلة. إن غلبة هذا العلم والعالم الذي يجري لبسط

١. ارام، أحمد، العلم في الإسلام، ص ٣٩.

التكنولوجيا يؤدي إلى إيجاد ضرب من الشعور بالوحدة لدى الانسان. وفي الحقيقة فان الانسان في هذا العالم الفاقد للأوان والتاريخ، يقوم برحلة مجهولة في هذا الوجود. والنقطة الدقيقة التي يشير إليها الدكتور رضا داوري في كتاب «حول العلم» هي:

يمكن القول بلغة رمانطيقية: عندما تحل التكنولوجيا فانها تربك بيت الإستئناس وحتى أنها تشرد الأناس الذين يعيشون فى البيوت المتلاصقة والخشبية والورقية. وعندما يقيم الانسان فى عالم التكنيک وفى ظلاله، فانه لن يكون له جار. وكأن الجيرة لا معنى لها فى عالم التكنيک.[١]

إن الطبيعة التى تتنزل بمجرد القوة، يتحول الانسان فيها إلى حاسب لهذه القوى ومصمم ومحرر ومستخدم لهذه القوى، وبالتالى فهو ينزل إلى مرتبة الطاقة والقوة. إن التكنيک ظهر من خلال إعتبار العالم مصدرا للقوة أو القوة بعينها، وإن لم يكن هذا الانطباع لما كان العلم الجديد يظهر. إن العلم و التكنيک استحدثا معا وحتى يمكن القول بان التكنيک وبمعنى واحد هو باطن العلم والتكنولوجيا. بمعنى أنه لا يجب اعتبار العلم والتكنولوجيا الحديثة بانهما كمال العلم والتكنولوجيا القديمة.[٢]

إن الميزة الجديدة والأساسية للعلم الجديد وكل ما يطلق عليه في التقليد الشرقي اسم العلم، تكمن في تسامي وتراجع شأن العلم والعالِم.

---

١. داوري، رضا، حول العلم، ص ١٨.
٢. المصدر السابق، ص ٢٩.

إن العلم الجديد يهبط بشأن الانسان والطبيعة إلى مرتبة الطاقة البحتة ومن ثم يوفر بمدد التكنولوجيا أدوات تصرف وتملك هذه الطاقة لكي تنشر القدرة والسلطة مجمل معناها ومفهومها في الأرض.

وفي المقابل، فان هذا العلم وحسبما يقول الدكتور نصر في كتابه «الحاجة إلى العلم المقدس» ينبع من المذهب الانساني والفكرة العقلية ونشر الدنيوية في العالم وهو ملتزم فقط بساحة ومرتبة واحدة من الحياة، أما نشأة العلم الديني، هي كلام الوحي وائمة الدين (المرتبطين بمصدر الوحي) وهو منزه عن التصور الانساني. ولذلك فانه بعيد كل البعد عن خصلة العلمانية والنزعة الخارجية البحتة، وهو بسبب جوهره القدسي، يستند إلى نظام لا يتغير وأصيل ومقدس، ويقوم على هيئة معرفة منتظمة بالكشف عن هيكلية تراتيبية الوجود من المبدأ الإلهي حتى أدنى المراتب.

وفي هذا النظام المعرفي ذي المغزى، يقع العالم المادي في أدنى مراتب الحقيقة.

إن «تراتيبية الوجود» بقيت طولية لجميع العلوم التقليدية وتربط العالم المادى بالنفسانى والنفسانى بالوهمى والوهمى بالعقلانى والعقلانى بعالم الملاك المقرب. إن الحضارات التقليدية مطلعة على المبدأ الإلهى للعالم وكذلك الإتكاء الوجودى للكائنات المادية على مراتب الحقيقة الأبعد، بحث لا ترتكب الخطأ الفادح المتمثل بعكس «مراتب الكائنات» إلى التراتيبية العرضية (الأفقية) ولا تقدم على الإستنتاج العصرى عن تطور الأنواع ـ هذا الغول ـ من وجهة النظر التقليدية.[١]

إن طرح التواصل المقدس وذي المغزى لتراتيبية الكائنات في النظام التقليدي والديني، يجعل الانسان والطبيعة يظهران في وفاق ووئام هائلين، بل وحسب هذا

١. المصدر السابق، ص ٣١.

التواصل، يذكر بوحدة العمل والنظر وعلم الاخلاق، بحيث أن الاخلاق تغطي بصورة شاملة جميع الشؤون بما فيها المجتمعات الانسانية والكائنات الحية والنباتات وحتى الجمادات، وتلزم الانسان بالتعاطي مع جميع الكائنات، بحماية أدب خاص.

إن هذا الأدب الخاص، يحول دون التعرض الأناني والتدخل الطائش في عالم الطبيعة، لان أيا من الكائنات في هذا النظام، هي بمثابة انعكاس لأمر مقدس ووجه من الأسماء والصفات التي تتجمع كليتها المطلقة في مبدأ الوجود وحقيقة الحقيقة المطلقة.

لذلك، فان نشأة وغاية هذه العلوم ليست التنمية والتصرف والتملك والتطاول على الطبيعة، بل هي تملك نشأة سامية ونورانية تذكر الانسان بالسير من الظاهر إلى الباطن لتوفر إمكانية نيل المعرفة والحقيقة، وتعود فائدتها إلى تلبية حاجة كلية تدعى الانسان الذي يحتوي في حد ذاته على الجسم النفس والروح.

وفي إطار التمييز بين العلوم التقليدية والعلوم الجديدة، يمكن التحدث عن العلم المقدس وغير المقدس، وطبعا من وجهة النظر التقليدية ليس هناك أي مجال مبرر ومعقول، يمكن اعتباره غير مقدس. فالعالم مظهر الأصل الإلهي وليس ثمة حدود من الحقيقة منفصلة عن ذلك الأصل. إن الحضور في منطقة الحق والتعلق ما هو حقيقي، يعني الإنغماس في محيط الأمر المقدس والتعطر بالعطر المقدس.

إن علوم ما بعد الطبيعة ومعرفة الكونية المتعلقة بالحضارات التقليدية، هى علوم مقدسة بشكل حاسم، ومن هنا وبوصفها علم على الظهور لا كحجاب، تعد توشيح الذات الإلهية وآيه الله.[١]

إن علوم مثل الفلك والرياضيات والهندسة وما إلى ذلك، تجد معنى أيضا من خلال التناسب مع هذه النظرة إلى الوجود والغاية والمقصود الذي يتم تعريفه لخلق الكون.

---

١. الحاجة إلى العلم المقدس، ص ١٧١.

إن مجمل هذه العلوم وفائدتها، تتوقف على الإمكان الذي يتوافر للانسان لكي ينسق ويوائم نفسه مع نظام الوجود المقدس وذي المغزى، وليجد من خلال الجهوزية، مجال السير من الظاهر إلى الباطن ونيل المراتب العليا والسامية.

إن هذا السير والسفر، يؤازر الانسان في تجسيد الصفات الإلهية السامية والعالية في ذاته، لذلك فان الحساب والهندسة والموسيقى والفلك يظهر العلاقة اللصيقة بين الظواهر والمخلوقات وبين الوحدة المطلقة، بل أنها تساعد الانسان على درك وتجربة ماوراء العالم المادي.

بعبارة أخرى، فان مجمل العلوم في هذا النظام المعرفي هي ذات نشأة إلهية.

إن العلوم التقليدية لجهة إبتنائها على الطبيعة «التراتيبية الكونية» ولجهة الأخذ فى الإعتبار أوجه الشبه القائمة بين «العالم الصغير» و «العالم الكبير» ولجهة الإستناد إلى العقل الذى يفلق الظواهر ويذهب إلى أبعد من الحس والدليل ويصل إلى الجوهر الباطنى، تابعة لأصول ومبادئ الميتافيزيقا وعلم الكون.[١]

إن هذا العلم (العلم المقدس) هو علم التشابهات الكونية، الذي يضفي على الانسان روح الرمزية ليكون قادرا على درك حقيقة الظواهر التي هي رمز لحقيقة ما.

إن هذا العلم يجهز الانسان ليدرک القوى الباطنية ويرى جوهر الأشياء. «وينمو «علم رموز النظام الطبيعى» فى أحضان علم الكونيات التقليدى ويؤازر الانسان التقليدى ليكتشف خطة للسير والسلوک المعنوى ويرى مجمل العالم كرموز تظهر قدرة وحكمة الصانع.[٢]

---

١. العلم في الإسلام، ص ٣٩.
٢. المصدر السابق، ٤٠٦.

وهل انتبهتم أبدا إلى المواءمة المذهلة بين الخط واللون والصورة والطبيعة في العمارة التقليدية؟

إن كلا من العناصر المذكورة، تظهر بداخلها رموزا تفصل الانسان عن الأرض وتذهب به بعيد إلى الأفلاك. وكأنها جملة مذكرة لتزيل بلطف جناح البلبل وظرافة ورقة الورد، رماد الغفلة عن ساحة عين الانسان وقلبه لكي يعكس بالتالي القلب المصقول كالمرآة، الأنوار الملكوتية والروحانية.

والمعمار المتمرس، هو هنا كالمعلم الذي يقحم الحساب والهندسة في العمل ليظهر التناسق السحري القائم بين العالم الكبير والعالم الصغير (الانسان).

إن حصيلة هذه البراعة، هي البنى التي تقحم برودة العالم القدسي في روح الانسان وتضع كل ذلك العالم في مقياس صغير لكنه ملموس وسهل الحصول، أمام الانسان.

إن الأقواس والقبب واللون اللازوردي والقيشاني والمنعطفات والملتويات دائرية الشكل والنقوش الجصية والخطوط، تعكس كلها طنين السماء وصافي العالم الشاعري، لكي لا ينسى طائر روح الانسان نسبته مع حقول قصب الوجود وبستان الملكوت، ويغض كسالك طريق العرفان الطرف عن الدنيا الفانية ويكتسب مجالا للحضور في عالم الأنس وكنز الوحدة.

وكل هذا، هو حصيلة الوعي الذاتي للانسان الذي باتت آذان روحه صاغية للكلام القدسي وتطهرت روحه وجسمه في نهر التقليد والثقافة، لان التظاهر والإستنساخ الجاهل (كالانسان العاجز العصري المنبهر بالغرب) لا يترتب عليه أي حدث ميمون ومقدس.

وعلى أي حال، فان العلم الجديد هو علم الدنيا والذي ينطوي في حد ذاته على الشهوة اللامتناهية والشيطانية للإستيلاء والسلطة. من دون أن يقيم صلة وعلاقة مع سر الوجود وسر الخلقة.

إن غياب النسبة مع سر الوجود يحول كل خضوع وخشية الرجال المتواجدين في صحن وساحة العلم القدسي والتقاليد المقدسة إلى العصيان والتمرد والطغيان والإستبداد والتكبر والنخوة والعجب وبالتالي نهلستية علماء العلم الجديد، وهي مبنية على تصور آلي النزعة عن الوجود وتبني صرح الحداثة والحضارة النهلستية الغربية، وتعتبر من منطلق النخوة، دراسات وانطباعات علماء العلوم التقليدية وأصحاب المعرفة والوعي بانها خرافة وجهل. وربما لهذا السبب، نرى أن الانسان الحداثي يعيش في الثقافة والحضارة الغربية وإفرازاتها أي المدينة والبيت والزقاق والحي والسيارة باضطراب وبلا هدف وشمولية مقترنة بالحرص والشهوة وهو يغوص في محيط من الأمراض والأزمات الفردية والاجتماعية، وينفق بحرص ونهم الموارد والرساميل من أجل الحياة العصرية والحديثة لكنها المعقدة ومتعددة الاوجه عسى أن يحول الشعور بالوحدة والتشكيك واليأس والقنوط واللاأدرية إلى شعور بالإستئناس والأمن. لكن هيهات لأن أفيون ومخدر عدم الفاعلية وقلة التأثير، يرغم الانسان الحداثي في عصرنا الحاضر على اللجوء يأسا من حصول مستقبل زاهر إلى أفيون ومخدر أقوى، عسى أن يجد سبيلا ومخرجا من هذا الطريق المسدود الرهيب.

وهذا الجنون والهوس لا نهاية له، لان جوهر كل هذا مجبول على التيه والضياع. المصير الذي سيجربه بلا شك جميع سكان حي الحداثة حتى وإن أنكروه مائة مرة.

إن الخروج من هذه الأزمة بمدد جميع العوامل المتسببة والمثيرة للأزمة وأسباب اندلاع الأزمات ذاتها هو مزحة ليس الا. وطالما أن الانسان يسير في هذا العالم (الغربي) ويعتبر كل ملزوماته ضرورية للوجود وديمومة الحياة، فان مصيره وقدره سيكون هكذا. إن هذا هو قضاء الله غير المرضي الذي أصبح من رزق الانسان بسبب غفلته وعزلته عن الفكر الأصيل، بحيث لا يمكن أبدا إعتباره أمرا حتميا و رحلة لا بد منها.

إن الإرادة المقترنة بالحق، هي منعطف تجعل روح الانسان تتذكر الحقيقة. وذلك في مقابل عدة قرون من الإستبداد والعصيان والهوس الخام الذي صنع من الانسان كائنا أحادي البعد لكي يتحول في نخوة تامة إلى الإرادة المقترنة بالسلطة. إن التجسيد التام للسلطة هذا، وجه جل اهتمامه نحو العالم الظاهر والإستيلاء على الأرض. إن الإرادة المقترنة بالسلطة والكبر والأنانية الشيطانية تتجلى بدرجات ومستويات مختلفة لدى جميع سكان هذا الموقع والموقعية من العالم وظهرت كلها في الثقافة والحضارة الغربية والتكنولوجيا والسياسة والسلطة الشمولية الامريكية. وكل هذا إنعكاس نظر وعمل اليهودية التي وقفت بكل ما لديها من قوة في وجه الحق والحقيقة.

إن المظهر الخارجي والتام لهذه الإرادة الشيطانية هو اليهودية الصهيونية، و هي تيار فاسد ومفسد ويرى حسب اللعنة الإلهية الأبدية إن تمتعه يكمن في استمرار الحياة الشيطانية ويوظف جميع الإمكانات للسيطرة الكاملة على الأرض و إغواء الانسان ومواجهة الحق.

والمؤسف أن هذا التيار وفي ضوء التكاثر المستمر وبث التمنيات والأحلام، جعل من الانسان العصري نموذجا ونسخة عنه، وأن الملايين والمليارات من الرجال والنساء ممن جعلوا الوجهة والمقصود اليهودي، إمامهم. إرادات حقيرة لكنها مقترنة بالسلطة وحب الدنيا وعبادة الدنيا وأقزام شريرة تتسابق من أجل التفوق والرئاسة والسيادة على الاخرين. وألا تشاهدون في حواليكم كم هائل من هذه التماثيل التي تجسد الإرادات الحقيرة؟

إن المظهر الخارجي التام والأتم والأكمل للإرادات المقترنة بالحق والتي هي مكان الظهور والتجلي التام لأسماء وصفات الحق جل وعلى، والمقدم في الخلقة (النورية) وأول واخر مخلوق مُلكي وملكوتي منذ صبح الأزل وحتى أمسية الأبد وواسطة فيض الرحمة المطلقة والمربي الكامل للانسان من قبل رب الأرباب وأمين سر الله وهادي السبل والصراط المستقيم وباب الحق والإمام المبين حضرة صاحب الزمان وصاحب الأمر، مولانا الإمام المهدي أرواحنا له الفداء، وهو يملك كل الإمكان لهداية ومساندة ونقل الانسان من ورطة هلاك ساحة الواقعية البحتة والإبتعاد عن الحقيقة والزمان إلى الساحة العالية والسامية والتناسب مع حقيقة الوجود وزمن إنعدام الهلاك والموت والأبدي والإستقرار بجوار عرش الرحمن.

إن ظهور الولاية التامة للحق منوط بالظهور الأكبر لإمام الزمان(عج) في آخرالزمان الذي نمر الان باخر سنواته، لكن التناسب معه و الإنتظار الحقيقي الذي يعد واحدا من شروط هذا الظهور التام رهن بالسؤال من الوضع الذي نعيش فيه.

إن إحياء النظام المعرفي المغفول عنه والمبني على الإنطباع الولائي عن العالم، هو أمر لابد منه، وهو صعب من دون النقد الجاد لأسس العلوم الجديدة.

إن هذا النظام أو المنظومة المتألقة التي تدور حول محور ولاية الحجج الإلهيين وإمامة إمام الحق، تشكل نقطة البداية للسير من الظاهر إلى الباطن والسفر من المُلك إلى الملكوت والمعنى من أجل الوجود. النظام الذي يبرز في الحقيقة موقع الإنسان ونسبته في وسط الكون.

ولذلك ونظرا إلى هذا الأمر المهم، والذي نعتبر أن الشيعة المقيمين في هذا الوطن الاسلامي محقون ومقدمون في رسم هذا النظام المعرفي والرجوع إليه، لان هؤلاء أكثر وأقدم من سائر الأمم في السابقة واللاحقة التاريخية والتقاليد العقائدية والثقافية وبالتالي نسبة وجودهم وسلوكهم مع هذا الأمر الحق.

وفي طرح السؤال الثاني، أي السؤال من الانسان، تمت الإشارة إلى الانسان المتكامل بوصفه المظهر الخارجي والتام والكامل للحق في ساحة الوجود. وفي القسم التالي وحسب الضرورة، سنتطرق إلى شأن ومكانة هذا الانسان في ساحة الوجود (إعادة قراءة الانسان المتكامل من وجهة نظر ائمة الدين(ع)) لكي يتم التعرف على همزة الوصل والمهمة التي يجعل التناسب معها من الممكن الخروج من قرون من الإنبهار بالغرب والدخول إلى العالم الديني وبالتالي إحياء النظام المعرفي المبني على ولاية الانسان المتكامل.

البيّنة الذهبية

عندما قام الإمام الثامن علي بن موسىالرضا(ع) برحلته المهمة من المدينة إلى «مرو» (خراسان)، أجرى حوارات في محطات مختلفة مع الناس، لكنه أدلى بكلام في محطة «نيشابور» وفي حضور حشد غفير من الجماهير، يعتبر من حيث تعدد الرواة الموثوق بهم و وفرة البيان، «سلسلة الذهب»، بحيث أن عظمة الكلام وعمق المضمون و صراحة البيان، أضفت مرتبة سامية عليه. و يمكن إعتبار هذا الكلام بانه الرأسمال الأساسي و روح و جوهر الفكر والرؤية الاسلامية. و المؤسف أنه لم يتم أبدا إيلاء الأهمية كما يجب لمضمونه و مفهومه.

فقد نقل الإمام الرضا(ع) في الجزء الأول عن أبيه وأبيه عن أبيه حتى الرسول الأكرم(ص) إذ نقل الرسول الأكرم(ص) عن جبرئيل بان الله تعالى قال:

«**كَلِمَة لا إِلَهَ إِلا اللّهُ حِصْنِي، وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي**».[1]

إن كلمة **لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ** هي أكثر التعابير إجمالا و إيجازا لشمولية معاني ومفاهيم الدين، و هو الذي استخدم عليه السلام له تعبير الحصن الحصين، الذي يحفظ الانسان من التعرض للعذاب و نار الغضب الإلهي.

---

١. قال علي بن ابيطالب(ع): حدَّثني أخي وابن عمّي محمّد رسولالله صلّى الله عليه وآله وسلم، قال :حدّثني جبرئيل(ع)، قال: سمعت ربّ العزّة سبحانه و تعالى يقول: كلمة «لاإله إلاّالله» حصني، فمن قالها دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي. (بحارالأنوار، ج ٤٩، ص ١٢٧).

إن العذاب والعقوبة أكانت في الدنيا أو الاخرة ليست إلا ردة فعل العمل والسلوك الذي يظهر حسب السنة التي لا تغيير فيها باشكال مختلفة بما فيها نار القهر والغضب في جهنم، مثلما أن المكافأة والأجر تمثل صورة نورانية ومستساغة لاعمال العباد. وعندما ننظر إلى باطن هذا العقاب، فاننا لا نرى فيه سوى اللطف، مثلما أن بوتقة الصائغ وضربات الحداد ليست إلا وسيلة وذريعة لصقل المعادن وتطهيرها من الشوائب والزوائد.

وقد ورد حول تجسم الأعمال والصور الغيبية الملكوتية:

«وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً»

وقد وردت في «الكافي» رواية غريبة في هذا الخصوص:

«إِذَا بَعَثَ اللّهُ الْمُؤْمِنَ مِنْ قَبْرِهِ خَرَجَ مَعَهُ مِثَالٌ يَقْدُمُ أَمَامَهُ ...»[1]

إن صورة العذاب والقهر، تتغير حسب العمل، بحيث أن لطفه وعنايته تحضر أمام العباد بصور مختلفة وبما يتناسب مع الأعمال.

إن كل ما يجعل الانسان جاهزا للقهر والغضب، هو نتيجة أعمال أبرزها يظهر في الحالات التالية:

- التمرد على أحكام وأوامر حضرة الحق؛
- تغيير وتبديل الأحكام والأوامر الإلهية؛
- تعطيل كل أو جزء من الأحكام والأوامر في العلاقات الفردية والجماعية؛
- الطيش والكِبَر في مقابل حضرة الحق.

---

١. بحارالأنوار، ج ٧١، ص ٢٨٤.

إن أيا من هذه الحالات أكانت حدثت بصورة فردية أو جماعية، تؤدي بالضرورة إلى ظهور نمط من الظلم وتربك مواقع وشؤون الأشياء والأشخاص والحقوق و... في النظام الحقيقي والمنشود.

وقد ذكر كبار علماء الدين مراتب للإيمان، سواء لسانيا أو قلبيا أو عمليا أو ...، وفي المقابل، فان عدم الإيمان له مراتب مختلفة أيضا، إذ تظهر في ظاهر اللسان والعمل تارة وبصورة خفية في صحفة الخاطر والذهن والقلب تارة اخرى. وكل من هذه المراتب، يؤثر على ساحة من الساحات العملية والأخلاقية والمعرفية للانسان.

إن من يدخل الاسلام عبر بوابة الشهادتين والإقرار اللساني بقول «لا إله الا الله»، لا يعتبر «مؤمنا» بالضرورة. ومن أجل الإرتقاء بمراتب الإيمان، لابد له أن يتخرج من مدرسة الأحكام العملية والأخلاق الفردية و الجماعية (التربية النفسانية) ليكتسب في مرتبة ما، المعرفة القلبية ويكون جاهزا للفناء في الله والبقاء بالله.

وفي مقابل هذا السير الصعودي وسلوك الدرجات، هناك سير نزولي. إن المرور بدركات الظلم والذنوب والذي يؤدي إلى الأفول والنزول، يتسبب في الإتصاف بصفة «أُوْلَـئِکَ کَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِکَ هُمُ الْغَافِلُونَ»[1] وبالتالي العذاب الإلهي.

إن الخروج من كل من الدركات، يتطلب تحمل عقوبة ما وأن النقصان في أي مرتبة، تتبعه بالضرورة عقوبة تتناسب مع ذلك النقصان. وربما لهذا السبب، فان جميع الخلائق سواء العارف أو العامّي وحتى الأولياء والأنبياء يعتبرون أنه لا بد لهم من التوبة بما يتناسب مع المراحل والمنازل. فالعامي يتوب من إرتكاب الحرام و العالم من المكروه والولي من المستحب وترك الأولى. وفي آخر مرتبة إذ قال رسول الله(ص):

---

١. سورة الأعراف (٧)، الآية ١٧٩.

«وَما عَبدْناک حَقَّ عِبادَتِک وما عَرَفْناکَ حَقَّ مَعْرِفَتک ...»

إن هذا الأمر ـ التوبة ـ يغطي جميع مراتب الحياة الفردية والجماعية في جميع العلاقات (الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها).

إن درك الموقع وكشف التكاليف في شتى المراتب، وحماية جميع الأمور على امتداد كل ما يجب وما لا يجب فعله، وكذلك العمل الواعي والمخلص والضمان القلبي، قادر على حماية العارف والعامي من الإنزلاق في براثن النفاق والشرك وبالتالي العذاب والعقاب.

إن الشريعة التي تعني صورة الأحكام العملية التي يتولى علم الفقه تبيانها، هي مرتبة من مراتب التدين. الوجه الذي يتولى تهذيب الأعمال الفردية والجماعية لأهل الإيمان وهو في نسبة مع خالق الكون وولي الله الأعظم(عج) والعالم الخارجي وكافة العلاقات.

الوجه الذي يشتمل على الجسم أكان جسم الانسان أو صورة العلاقات الفردية والجماعية، ويطهره ويجعله جاهزا للعبور إلى المراتب والمدارج. وحسب شأن هذا الوجه، فان الشريعة ليست بمنزلة تمامية الدين والتدين بل مرتبة إبتدائية تجعل من المتدين، كائنا تظهر الشريعة في أعماله وسكناته، وهو تجسم وتمثال خارجي وحقيقي للشرع المقدس الذي يؤمن به المتدين ويلزم نفسه في التبعية له. ولا يخفى انه مع توحد الانسان مع حقيقة الاسلام، تتوافر إمكانية ظهور جوهره، أي توافر العبودية. إن الإرتقاء إلى المراتب الأعلى، يتطلب العبور من المرتبة السابقة وحسب تطبيق التكاليف المتطابقة لحكم صاحب الشريعة والطريق الذي يحظى بتأييد ولي الله الأعظم(عج)، وإلا فان بروز النقصان والإهمال في تكاليف المرتبة الأولى، يؤدي إلى الركود والتراجع والسقوط إلى فئة المنكرين.

إن مدرسة الأخلاق ـ التي يجب أخذ جميع أصولها وفروعا وشعبها من ذلك المنشأ الذي يحظى بتصديق حجة الله - تدفع مركب الجسم في طريق العبودية نحو منطقة الإخلاص، لكي تتأدب النفس مع تطهر الأعمال من الشوائب، بادب الدين، وترتقي إلى مراتب أعلى بعد فك جميع قيود النفس الأمارة. إن هذه المدرسة هي باطن الشريعة. وهنا يمتزج الظاهر بالباطن لكي ينتبه سالك طريق النور، إلى المرتبة الأكثر نورانية.

إن هاتين المرتبتين هما مقدمة للصعود إلى المرتبة الثالثة. إن جسم وروح الطالب، جاهزان للتناسب فعلا مع عالم المعرفة حسب طاقة وجهوزية مكان ظهور درجات من الأسماء والصفات الكمالية، ذلك الشئ الذي يسمى المظهر الخارجي للتدين والتجسم الخارجي للأسماء والصفات المتعالية.

إن هذا السير الإكمالي في المرتبة النهائية، يفضي إلى مقام الانسان المتكامل ـ الذي هو صاحب أسمى درجة من الصفات الإلهية -. وفي نهاية هذا الطريق، يقف الانسان المتكامل الذي هو صاحب تلك الصفات بشكل تام وأتم، باعتباره خليفة الله. إن هذه الدرجة من الكمال التي ظهرت في حضرة الأولياء من أهل بيت النبي الأكرم(ص) بوصفهم الولاية التامة والكلية، تجسد في الحقيقة ظهور أعلى وأسمى مرتبة من الصفات الكمالية لدى هؤلاء الأولياء الإلهيين. وهم بوصفهم أصحاب الولاية المسموح لهم بالأمر والنهي والتصرف في شؤون العالم، ويعتبرون في ظل علو شأنهم وقربهم إلى الله والتمتع باعلى درجات الصفات الكمالية التي يوجد مطلقها عند الله تعالى، واسطة بين الخالق والمخلوق وجاهزون ويحق لهم التمتع بهذا المقام.

وربما أن أحد معاني كلام الوحي:

«وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»[1]، هو أن بعض المفسرين ذكروا تعبير «ليعرفون» ل «ليعبدون»، أي أن الله تعالى خلق الجن والإنس ليكونوا في طريق عبور المراتب، جاهزين لاكتساب الصفات الكمالية، وتتحصل منهم كائنات نامية والمظهر الخارجي للعبودية والأخلاق والمعرفة.

وفي الأدب الديني، فانه تم التعبير عن الحد الرفيع بين الكفر والإيمان وبين الرضا والسخط وبين الجنة والنار، بجسر الصراط. إن هذا الجسر هو أرفع من الشعرة وأمضى من السيف. إن هذا الجسر هو في دار الدنيا هذه. ونواجهه كل ساعة ويوم من دون أن ندري. ومن لم يعبر هذا الجسر في هذه الدنيا وهذا التاريخ، فانه لن يكون قادرا طبعا في الدار الاخرة على العبور من هذا المظهر الخاص. إن الغفلة والإستبداد، ينتزعان منا إمكانية كشف المجسم الدنيوي لهذا الجسر، بحيث أن هذين العاملين يحولاننا إلى المظهر الخارجي للنفاق وأهله، ونؤمن دائما ببعض الآيات ونكفر ببعضها الاخر.

«وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ».[2]

وقد اعتبر ثامن الحجج الإمام علي بن موسى الرضا(ع) في تلك الرواية، الدخول إلى حصن «لا إله إلا الله» بانه مشروط بشرط مهم وهو:

«بِشَرْطِها وشُروطِها وأنا مِنْ شُروطِها»

أي، أنا علي بن موسى الرضا، أي أن ولايتي هي من سلسلة أولياء الحق، من ذرية النبي الأكرم(ص)، هو شرط الدخول إلى هذا الحصن. وهذا الشرط لا بديل له.

---

۱. سورة الذاريات (٥١)، الآية ٥٦.
۲. سورة النساء (٤)، الآية ١٥٠.

وتتضمن هذه العبارة معان ومفاهيم رفيعة، يحتاج تفصيلها إلى مجال اخر. ويمكن بهذه العبارة المجملة تفسير الحاضر والمستقبل وإزاحة ستار الوهم والخيال لأكثر من الف عام من التدين (في الظاهر)، وكشف وتوضيح حقيقته التي لم تكن أحيانا وبالا. إن سنة عظماء الدين، وبتبع كلام الوحي هي تبيان مجمل القضايا، وأن التفسير وإماطة اللثام عن كل ذلك هو باذنهم حيث يبدي باطنهم، لكن باطن باطنهم، لن يتضح إلا لأهل العلم والراسخين في العلم. إن درك الصفحات الاولى والظاهرية للكلام، يتطلب أهلية خاصة ناهيك عن باطنها.

إن حجة الله، يعلن في حشد غفير من الناس في «نيشابور» وعشية وصوله إلى مدينة «مرو» حيث يحكمها طاغية مثل المأمون ويسمي نفسه أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، يعلن بصراحة: أنا مرشد هذا الحصن، وأنا راية هذا الحصن، وأنا أتولى صدور ورقة العبور. الشرط اللازم والواجب والضروري على الإطلاق للدخول إلى حصن الإيمان وبستان الفلاح المثمر ولقاء حضرة الحق، بحيث قال النبي الأكرم(ص):

«أنا مِدينةُ العِلم وعليٌّ بابها».[١]

إن العلم بالمعنى الحقيقي للكلمة هو لدي، أنا مدينة العلم وماعداها سراب ووهم وخيال وأن عليا(ع) بوابة الدخول إليها.

إن عليا وولاية علي هي الحسن وولايته وهي الحسين وولايته، ولي الله الذي يصل في سلسلة أهل البيت إلى حضرة صاحب الزمان(عج). إنهم وحسب شأن الولاية التامة لائمة الدين، قادة وحماة مدينة العلم والدين والحقيقة والمعرفة المتجمعة

١. بحارالأنوار، ج ١٠، ص ١٢٠ وج ٢٤، ص ١٠٧؛ الإرشاد، ج ١، ص ٣٣.

في رسالة ونبوة وولاية رسول الله(ص)، خاتم الأنبياء الذي هو جامع جميع علوم الأنبياء وكمال الدين ولديه تفسيره وتأويله كله.

ويستخدم الإمام علي أمير المؤمنين(ع) عبارة جميلة في حديث «النورانية» الذي يعرّف مكانة وشأن حضرة ولي الله الأعظم(ع)، إذ يقول:

«... انا خاتم الوصيّين ، واَنا الصِراطُ المُستقيم ، واَنا النبأ العظيم الذى هُم فيه مُختلفون ...».[1]

وحسب روايات الأئمة المعصومين(ع) فانه يسأل كافة الخلائق في ساحة القيامة وعند جسر الصراط، ويمنح جواز المرور.

إن جسر الصراط هو ذلك الشرط المذكور في رواية «سلسلة الذهب» لثامن الأئمة(ع). هو جسر الولاية الذي يفضي إلى مدينة الإيمان والفلاح، أي جنة الخلد.

وقد حثت الأدعية والزيارات المأثورة و الخاصة باهل البيت(ع)، المسلمين دائما على التقيد بأدب وشأن هؤلاء الذوات المقدسة، ومن بين هذه الزيارات، تعد زيارة «الجامعة الكبيرة» بمثابة النظام العقائدي والفكري والنظام الداخلي للانسان الشيعي.

ولايخفى بان القرب من هذا الصراط والإقتراب من زعيم المزار الكبريائي، يتطلب إكتساب نوع من المحرمية معه، وأن هذه القرابة خاصة بالتماشي والتناغم في العقيدة والصفات والخصال التي تتجسد فيه بوجهها التام والتمام. وهذه الصفات والخصال الباطنية، الذي جعلته فريدا وخاصا لكي يكون في مقام الولاية حافظا لحريم الدين والشريعة، وبغير ذلك فان ابن نوح وجعفر الكذاب وأمثال أبولهب، كانوا أقرباء في الظاهر للنبي نوح(ع) والإمام الهادي(ع) والنبي الأكرم(ص)، لكن أيا منهم لم يكن

---

۱. بحارالأنوار، ج ۲٦، ص ٥.

من أهل بيتهم حسب اللغة القرآنية، بحيث أن القرآن الكريم يتوجه إلى النبي نوح(ع) قائلا:

«يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ...».[١]

فلا القرابة والقربى ولا التكلف الظاهري، لا يجعل أي منهم، الانسان، جاهزا للقرب.

والمألوف بين المسلمين هو أنهم يؤدون جميع الأعمال بقصد القربة، ويعتبرون هذا القصد بمنزلة تنقية النية من شوائب الرياء والسمعة والتظاهر والتفاخر وجلب المنفعة والإستغلال، لكن القرب إلى الساحة القدسية يعتبر في الحقيقة بمثابة الدخول إلى جغرافيا الصفات الكمالية. الصفات التي يوجد مطلقها عند الله تعالى. إن العبد المخلص ومن خلال إظهار السخاء والرحمة والشفقة وسائر الصفات الكمالية، يبدو بانه من الله وإليه راجع. وهذا المعنى سائد في القربة إلى الساحة المقدسة للأولياء. إن ممارسة السخاء والتستر على عيب الخلائق ومساعدة العاجزين واعتماد الشجاعة والعفة وما شابهها والتي هي سارية وجارية في حجة الحق بالكامل، تجعل التابع والنصير في فئة أهل الحرم وأهل الولاية ومنهم وفيهم، وتؤدي إلى نشر هذه الصفات بين الناس. تيار سيال وزلال يجسد تمامية هدف الخلقة في الأرض. وحسب هذا الأمر، لا تربط ابن نوح قرابة بنوح ولا يعتبر من أهله، مثلما أن جمعا غفيرا من المسلمين لا يقيمون نسبة مع أهل البيت(ع).

إن التقرب إلى حارس هذا الحصن والدخول فيه، يتطلب سلوك مراتب المحرمية، واستجلاب الصفات الكمالية. إن إكتساب هذه المراتب يجعل السالك المطالب بالتقرب

---

١. سورة هود (١١)، الآية ٤٦.

والدخول، يحوز على درجات من الصداقة والمحبة واللياقة. إن أكمل رتبة من هذه المحرمية وأعلى درجة من هذه الصفات الكمالية تظهر لدى أئمة الدين، والتي توصلهم إلى مقام الولاية. إن صلاحياتهم وكونهم يحظون بالإذن لنصرة الطالبين وهدايتهم وإشرافهم على عموم الخلائق، نابع من هذه الجدارة والإستقرار التام للصفات الكمالية فيهم.

إن خليفة الله يجب أن يتحلى بالضررة باسمى درجات الكمال، بحيث أنه من المحال عقليا، أن يتم مع وجود وحضور الكائن الأكمل، إلباس لباس وخلعة الخلافة لصاحب المرتبة الأدنى من الجدارة والكمالات.

إن خليفة الله، هو الذي أعلن الباري عز وجل منذ بداية قصة الخلقة، أن خلقه هو سبب خلق العالم والانسان، وهو المظهر الخارجي التام والتمام والكامل للصفات الكمالية المتعالية، وهو القادر بالضرورة على أن يكون معلم ومرشد الخلائق والأخذ بيدهم في الطريق المحفوف بالتقلبات.

إن هذه القاعدة والسنة العقلانية البسيطة التي تعد دائما الأشرف والأفضل والمستحقة للعطاء، بحيث أن حكمة وعدالة الله تقتضيها. وبالضبط في الأرض، يصبح عاقلا وبالغا وولي وقيم الصغير غير المميز والسفيه. ونقرأ في الزيارة الخاصة بحضرة صاحب الزمان(ع) ومتوجهين إليه:

«السَّلامُ عَلَيْکَ يا خَليفةَ اللهِ وَخَلَيفةَ آبائِهِ الْمَهْدِيّينَ»[1]

إن خليفة الله هو صاحب ميراث الأنبياء ومصداق الوارث الذي أراد الله أن يجلعه إمام الأرض ووارثها.

---

١. بعد دعاء زيارة آل ياسين: قف عند باب حرمه وقل.

وبلا شك فان المخلوقات التي يتم مخاطبتها أحيانا من منطلق العتاب «أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ»[١]، لا يمكن أن تكون مصداقا لخليفة الله، الذي قضت إرادة الله بخلقه.

وتفسيرا للآية المباركة:

«وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ»[٢]

يستخدم الأئمة المعصومون تعابير جميلة وتنويرية، نشير إلى أمثلة منها:

وتم في الروايات المؤكدة المنقولة عن الأئمة المعصومين(ع)، تأويل هذه الآية على أنها تدل على واقعة الظهور الشريفة وقيام الإمام المهدي(ع). وكان الإمام الصادق(ع) كلما تلا هذه الآية كان يقول ما مضمونه: أن هذه الآية نزلت بشأن بني اسرائيل وتأويلها في حقنا.[٣]

كما قال الإمام علي(ع) ما مضمونه إنهم آل محمّد(ص) يبعث الله مهديهم بعد جهد كبير فيُعزهم ويُذل أعداءهم.[٤]

وقد ورد في معارف أهل البيت(ع) أزيد من ١٨٠ إسما ولقبا ـ يحظى كل منه بشأن من الشؤون ـ للحجج الإلهيين. وكل واحد من هذه الأسماء والألقاب والشؤون هو باب يزيح الستار عن كمالاتهم السامية. وهذه الرتب الكمالية تظهر درجة وقوفهم وقربهم من حقيقة التوحيد والمعارف الإلهية، بحيث أنه ورد في الكثير من السلام الموجه إلى تلك الذوات المقدسة:

---

١. سورة الأعراف (٧)، الآية ١٧٩.
٢. سورة القصص (٢٨)، الآية ٥.
٣. سليمان، كامل، زمن التحرر، ترجمة علياكبر مهديپور، ص ١٥١؛ إلزام الناصب، ص ٢٢؛ بحارالأنوار، ج ٥٣، ص ٢٦.
٤. زمن التحرر، ص ٤٥٠؛ الإمام المهدي، ص ٢٦٧؛ المهدي الموعود، ترجمة ج ١٣ بحارالأنوار، ص ٢٦٨.

«اَلسَّلامُ عَلَيْکَ يا بابَ اللهِ الَّذى لايُؤْتى اِلّا مِنْهُ، اَلسَّلامُ عَلَيْکَ يا سَبيلَ اللهِ الَّذى مَنْ سَلَکَ غَيْرَهُ هَلَکَ»[1]

وبديهي أن الله تعالى يجعل من منطلق اللطف أمام الناس بابا وسبيلا ونورا كأسوة وكذلك طريق الوصول والمصداق الخارجي للكمالات المتعالية، ليكسبوا إمكانية السير في المراتب، ويقبلوا تلك الحقيقة القابلة للوصول والعملية مع مشاهدة مصداقها الخارجي وليتخلصوا في الطريق من قيد الضلال وينجو من الإنزلاق في براثن الآفات والبلايا والعذاب والقهر الإلهيين.

لذلك فان هؤلاء:

- هم المظهر الخارجي للحق أو الحقيقة المجسمة والقرآن الناطق (على هيئة انسان)؛
- الأسوة الحقيقية والموضوعية، ويتجلى فيهم السمو والتقرب (لَكُم فى رَسولِ الله أسْوَة حَسَنة ...)؛
- يمكن من خلالهم إيجاد طريق الذهاب وتمثيل كيفية الوجود والذهاب وكل هذا في سيرتهم وسنتهم (بحيث أن سيرتهم وسنتهم هي من مصادر ومعايير تشخيص الحكم وأن النبي الأكرم(ص) جعل أهل البيت(ع) إلى جانب القرآن وفي مقام الثقل والأمانة المتبقية للمسلمين بعد النبي)؛
- يتضمنون الفلاح والتخلص ومنح الأمان من عذاب القهر الإلهي؛
- إنهم الحجة البالغة الذين أعلنت حجيتهم من قبل الله.

ولايوجد أحد في الوجود، صاحب وحامل مجمل هذه الشؤون والمستحق إمتلاكها، لانه حسب الآية الكريمة:

---

۱. مفاتيح الجنان، زيارة الإمام المهدي(عج).

«إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»[١]

حتى لا يحدث خلل ونقصان في مقام «خليفة الله» والإمامة وفي تربية وهداية وإرشاد العباد الذين هم كلهم معرضون للخطأ والسهو ووساوس الشيطان والعمر القصير والموت الذي لا مفر منه وسائر الإبتلاءات (حسب الحياة والسير في الدنيا التي هي دار الإبتلاء والإمتحان).

إن هذا الأمر ناتج عن لطف الله بالعباد وأن كون الحجج الإلهيين مختارين وأصفياء[٢] يشمل هذا المعنى. إن مجمل الروايات المنقولة عن رسول الله(ص) وائمة الدين(ع) في المصادر الروائية الشيعية وأهل السنة، تعكس الإشارة المباشرة لهذه الآية إلى ذرية رسول الله(ص) وأهل بيته(ع).

إن إختصاص هذه الشؤون التي أشير إليها في الروايات المأثورة لاسيما الأدعية الصادرة عن كنوز أهل البيت(ع)، لا ينطوي على تبيان المجاملات والتحبيب الجاري والساري بين عموم الناس، لان هذا العمل يعد بمثابة اللغو في ساحة حضرة رب العالمين وائمة الدين(ع)، في حين أن هذه الساحة الجليلة براء من اللغو والعبثية والمجاملات. إن تبيان الصفات المتعالية: خزان العلم، منتهى الحلم، أصول الكرم، ذوي النهي، ورثة الأنبياء، معادن حكمة الله، حفظة سر الله، مخلصون في توحيد الله، أهل الذكر، أولى الأمر، بقية الله و... مؤشر على جميع الصفات وحصول الظروف التي يجعل إستقطابها واجتذابها وحراستها، أشخاصا جاهزين ومستحقين لإكتساب لقب خليفة الله.

---

١. سورة الأحزاب (٣٣)، الآية ٣٣.
٢. السلام على أولياء الله وأصفيائه (الزيارة الجامعة).

إن الظهور التام لهذه الصفات، صنعت من أهل البيت(ع) مثلا أعلى للتدين وأحد الثقلين، القرآن وأهل البيت(ع)، بحيث أن سيرتهم وسنتهم تتمتع لدى العلماء ومراجع الدين بالأرجحية لتشخيص الحكم وحل المسألة. وورد في رواية عن النبي الأكرم(ص) والإمام الحسن العسكري(ع):

«مَن ماتَ ولم يَعرِفْ إمامَ زمانِه ماتَ مِيتةً جاهليّة».[١]

إن عدم معرفة إمام الزمان(عج) هو بمنزلة عدم معرفة الوجهة والطريق وحجة الخروج من الجاهلية والضلال. وعندما تتجلى الحقيقة في إمام الزمان(ع)، أي أنه عندما يكون الحق لديه ومعه ويتحصل عن طريقه، فماعداه مهما يكن وتحت أي مسمى كان، هو الجاهلية والضلال بعينهما.

ونقرأ في الزيارة «الجامعة الكبيرة» نقلا عن الإمام علي النقي(ع):

«وَالْحَقُّ مَعَكُمْ وَفيكُمْ وَمِنْكُمْ وَاِلَيْكُمْ وَاَنْتُمْ اَهْلُهُ وَمَعْدِنُهُ»[٢]

وفي الرواية:

«إنى تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله، وعِترتى أهل بيتى؛ فإنّهما لن يفترقَا حتى يردَا علىّ الحَوْض»[٣]

يتم تبيان أن هذين الإثنين لايفترقان عن أحدهما الاخر وإلا لما قيل بان «الْحَقُّ مَعَكُمْ وَفيكُمْ وَمِنْكُمْ وَاِلَيْكُمْ»، فان الحق لم يضف إليهم أو أنه عرض في حياتهم في وصف عرضي، بل أن القرابة معهم هي القرابة مع الحق والإبتعاد عنهم هو الإبتعاد عن الحق بعينه، بحيث نقرأ في زيارة حضرة صاحب الأمر(ع):

---

١. بحارالأنوار، ج ٥١، ص ١٦٠.
٢. مفاتيح الجنان، الزيارة الجامعة الكبيرة.
٣. النبي الأكرم(ص)، بحارالأنوار، ج ٢٣، ص ١٤٥ (وهذه الرواية متواترة لدى الشيعة وأهل السنة).

«أَنَا وَلِـيٌّ لَـکَ بَـرِيءٌ مِـنْ عَـدُوِّکَ فَـالْحَقُّ مَـا رَضِـيتُمُوهُ وَ الْبَاطِـلُ مَـا أَسْخَطْتُمُوهُ»[١]

إن الضلال لا يتجسد بالضرورة في مصداق ثابت مثل عبادة الأوثان. إن الباطل يظهر بشكل ما في كل عصر ونسل، ففي الدهور السابقة تجسد في فرعون ونمرود ويوم آخر في أبولهب وأبوسفيان أو عبادة الأوثان المصنوعة من الحجر والتمر أو عبادة القمر والكواكب.

إن تباين الصور والمصاديق لا ينسحب على التباين في المعنى والباطن. إن مفهوما ثابتا يدعى الإستكبار والغطرسة، يظهر بشكل ما في كل عصر، والمهم هو كشف المفاهيم الثابتة.

إن حب أهل البيت(ع) والتقرب إليهم وتجديد العهد معهم، يتناسب مع هذا المعنى. إن التقرب ممكن تحقيقه من خلال الإشتراك في الصفات الكمالية واستجلابه واجتذابه. ففي موقع، يصبح الكلام موجها إلى سلمان الفارسي الذي لا تربطه أي قرابة (نسبية وسببية) بالنبي الأكرم(ص):

«سَلْمانُ مِنّا أَهْلَ الْبَيْتِ»[٢]، لكن أبولهب ورغم قرابة الدم مع النبي الأكرم(ص) يصبح «تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ»[٣] موجها إليه.

إن الإشتراك في الوجهة والطريق أي الإشتراك في المعنى وكيفية الوجود في الدنيا، ينطوي في حد ذاته على قرابة ومحرمية. فعندما انخرط سلمان في السير الإكمالي مع أهل الحق، اكتسب مقاما ساميا وأصبح جديرا بهذا الخطاب حيث «سلمان منا»، وفي المقابل، فان الذي هبط في دركات النزول إلى مكانة متدنية

١. زيارة حضرة صاحب الأمر، مفاتيح الجنان، ص ٦٨٠.
٢. بحارالأنوار، ج ١٠، ص ١٢٣.
٣. سورة المسد (١١١)، الآية ١.

ونازلة بحيث يخاطبه حضرة الحق ب «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ»، تكون إرادة الله تعالى، هي إرادة النبي الأكرم(ص) أيضا.

وعندما ينصهر انسان عظيم كالنبي الأكرم(ص) في الحق ويؤدي إلى الظهور التام للعبودية، يصل في هذه المرتبة إلى درجة من القرابة، بحيث يصبح المقصود من «فكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى»[1]. أي أن النبي(ص) بلغ في السير الإكمالي وسلوك المراتب، تلك الدرجة بحيث أصبح قربه من حضرة الحق بقدر المسافة بين طرفي القوس أو أدنى منها.

وبلا شك فان جبرئيل هو في خدمته في هذه الساحة، بحيث أعلن جبرئيل في تلك الرحلة في ساحة أخرى:

«ولَوْ دَنَوْتُ بِقَدْرِ أُنْمُلَةً لَاحْتَرَقْتُ.»[2]

إن جهوزية وجدارة الرسول المرسل(ص) للقرب، هي أعلى وأرفع من جبرئيل(ع): ولذلك يقول سعدي الشيرازي:

يصل الانسان إلى موقع لا يرى فيه سوى الله

أنظر إلى أي مدى يمكن أن يصل الانسان

وقد وصل إلى حيث لم يكن فيه أحد سوى هو والله. إن هذه الدرجة من المحرمية، لا ينالها جبرئيل.

إن معنى إرادة الله في خلقة الخليفة، تظهر في هذا الموقع. إن خليفة الله هو الخليفة والحجة والأسوة لما هو سوى الله. ويبدأ نطاق حكمه من الملوكتيين المقربين، بمن فيهم جبرئيل وحتى أدنى واحد منهم في عالم الملك.

---

۱. سورة النجم (۵۳)، الآية ۹.
۲. الإحتجاج، ترجمة غفاري، ج ۱، ص ۱۷۵.

وقال النبي الأكرم(ص) متوجها إلى علي(ع) ما مضمونه:

يا على من يخشى الله يخشى الجميع منه ومن لم يخش الله، يجعله الله يخشى كل شئ.[١]

إن الخشية تحتوي في حد ذاتها على الخضوع والتذلل أمام الله تعالى. ومن يتذلل لله، يصبح مقربا منه.

إن مقتضى التناسب مع خالق الوجود، هو الولوج إلى مدار عزته وعنايته. «وَمَنْ يَتَوَكّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ»[٢]، فمن يتوكل على الله لا يخشى سواه، فتناله عزته بحيث يبقى في مأمن من الخوف من ما هو سواه.

وبسبب هذه النسبة وجلب الكمالات فان حصة كبيرة من هيبته وجلاله تشمل عبده، بحيث أن الجميع وأثناء مقابلة الأولياء والأنبياء ينحنون إكراما واجلالا لهيبتهم وجلالهم. وربما يمكن درك هذا المعنى بعبارة أخرى:

«**العُبودِية جوهَرة كُنْهها الرُبوبية**»[٣]

إن العبد الصالح وحسب العبودية التامة والكاملة، يبلغ درجة ينال فيها صفة تربية وتنشئة غيره والتي تسير في مراتب أنزل منه. إن هذا الشأن هو بغير سائر الشؤون التي تمنح للعبد الصالح باذن الله لتربيته وإرشاده ومؤازرته.

بعبارة أخرى فان تربية وتنشئة العباد هي من شؤون وليّ الله، فلا يمكن حسب قول الله قبول أناس كولي وصاحب الولاية والمشرف التام في جميع الشؤون الدنيوية والأخروية، وانتزاع شأن تربية وإرشاد العباد منهم.

---

١. بحارالأنوار، ج ٦٦، ص ٤٠٦.
٢. سورة الطلاق (٦٥)، الآية ٣.
٣. مصباح الشريعة، ص ٥٩٨.

«إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ»[١]

وقد دخل جابربن عبدالله الأنصاري على النبي الأكرم(ص) في الأيام الاخيرة من حياته وسأله عن الآية الكريمة:

«وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ»[٢]

فقال النبي(ص) ما مضمونه: يا جابر، إن القصد من هذه الآية هو الأوصياء من بعدي، ويأتي يوم تلتقي فيه ابني محمّد الباقر وتدرك زمانه، وبلغ سلامي له ... .[٣]

إن الخوف والشعور بالدونية والخشية والذي يؤدي أحيانا بالناس إلى الخضوع والخشوع في غير محله أمام رجال ونساء مثلهم، مؤشر على عدم خشوعهم وخضوعهم وتذللهم لله. وكأن الستائر المحافظة قد اميطت عنهم ويشعرون بانهم عزل وبلا دفاع.

إن خشية المؤمن من الله، هي حصيلة مشاهدة الفقر الذاتي في مقابل عظمة الباري عز وجل.

وهذا الفخر، يجعل المؤمن جاهزا للإقرار بالنقص والضعف وإظهار العبودية عسى أن يتلطف عليه ذلك العزيز الغني من منطلق كرمه ويهبه نصيبا من رحمته الواسعة، بحيث أن هذا المؤمن يرفع يديه نحو المحبوب من أجل مغادرة الفقر والضعف والعجز.

---

١. سورة المائدة (٥)، الآية ٥٥.
٢. سورة الأنبياء (٢١)، الآية ٧٣.
٣. تفسير البرهان، ج ٣، ص ٦٦.

إن كلا من الكائنات وحسب طاقتها ومشيئة الله، تعد مظهرا لصفة من الأوصاف وتحمل خصلة من مجمل الخصائل، بحيث أن كلا منها بما فيها الحيوانات والنباتات تحصل على حصة من الوفاء والحلم والصبر والسخاء والشجاعة والغضب والحمية وأمثالها، وحتى أن البعض منها يتقدم على الآخر في إبراز صفة خاصة.

إن العالم الأكبر هو المرآة الجامعة لجميع هذه الصفات والخصال في الكائنات، مثلما أن الجلال يبدي نفسه في هياج البحر والطوفان، ويرتدي الجمال، ثياب أوراق الزهور ولطافة الندى.

إن الانسان يملك موهبة وقوة اجتذاب وإظهار كل هذا. ولذلك فان خطاب العالم الأصغر موجه إليه. إن هذه الموهبة والرجحان في جلب وإظهار الصفات الجمالية والجلالية، تجعله أشرف المخلوقات وسيدها، بحيث يستثمرها من خلال التحكم بالأرض والكائنات.

إن كلا من أبناء البشرية يحمل جزء من هذه المجموعة من الصفات، بحيث تظهر أحيانا صفة أو خصلة في فرد بشكل أبرز من سائر الأفراد.

إن لطافة طبع الشعراء وخشونة الجبارين الطغاة، تشكل كل منها صيغة لظهور وبروز هذه الصفات التي تظهر بالإفراط تارة وبالتفريط تارة أخرى وتضيق الخناق على الكثير من مخلوقات الله وتتسبب باندلاع أزمات كبرى. وهذا الإفراط والتفريط، وانعدام التعادل والعجز في إدارة الذات، يؤدي إلى أن يفتقد الأشخاص إلى أهلية تولي المناصب.

إن إدارة الذات تعد مقدمة لإدارة الاخرين. إن هذه الإدارة هي بالضرورة رهن بمعرفة الذات، ومعرفة الذات هي معرفة الانسان ومجمل قواه وقدراته، معرفة كل

ما يمكن أن يهبط به من أعلى المراتب إلى أدناها، وبالتالي معرفة مسالك الوصول إلى الحقيقة ومصادرها. لذلك فان الله تعالى قدم رجالا بوصفهم خلفاء وقادة يملكون أعلى درجات القدرة لإدارة أنفسهم.

إن المعرفة الحقيقية للذات تؤدي بالضرورة إلى معرفة خالق الكون، وربما لهذا السبب ورد:

«مَنْ عَرَفَ نفسَه فقد عَرَفَ ربَّه»[1]

إن هذه المعرفة تؤدي إلى الخضوع والخشوع وإنكار الذات. إن الانسان الذي يتفرغ بالكامل من ذاته، يمتلئ حقا.

إن الانسان الكامل يفرغ تماما من ذاته ليمتلئ حقا.

ولعزيزالدين نسفي صاحب كتاب «الانسان الكامل» قول بديع في التعريف بهذا الانسان وموقعه في الكينونة إذ يقول:

إعلم أن الشريعة هى قول الأنبياء والطريقة هى سلوك الأنبياء والحقيقة هى رؤية الأنبياء، وعلى السالک أن يتعلم بداية من علم الشريعة ما يجب تعلمه ومن ثم يطبق من عمل الطريقة ما يجب تطبيقه لكى يكتسب من أنوار الحقيقية بقدر سعيه وجهده ...

إن من يقبل ما قاله نبيه، فهو من أهل الشريعة ومن يطبق ما جاء به نبيه فهو من أهل الطريقة، ومن يرى ما رآه نبيه، فهو من أهل الحقيقة ...

إن تلک الفئة التى تملک هذه الثلاثة، هى فئة متكاملة وهى تقود الخلائق، وتلک الفئة التى تفتقد إلى أى من هذه الثلاثة، هى فئة ناقصة وهى من البهائم ...

---

۱. بحارالأنوار، ج ۲، ص ۳۲.

إن الانسان المتكامل هو ذلک الانسان الذى يحظى باربعة أشياء متكاملة: القول الحسن، والفعل الحسن والأخلاق الحسنة والمعارف. ومن أكمل هذه الأشياء الأربعة، فانه يكون قد بلغ كماله... وهذا الانسان الكامل يكون دائما فى العالم ولا يزيد عن واحد. لجهة أن جميع الكائنات هى كشخص واحد، وأن الانسان الكامل هو «قلب» ذلک الشخص، وأن الكائنات عديمة القلب لا يمكن لها أن تكون. لذلک فان الانسان الكامل فى العالم لا يزيد عن شخص واحد. ففى العالم، هناک الكثير من العلماء والعارفين، لكن من هو «قلب» العالم ليس أكثر من انسان واحد. والآخرون يتدرجون فى مراتب، وكل فى مرتبة. وإن رحل ذلک الشخص الواحد عن العالم، يحل محله شخص فى مرتبته ويجلس محله لكى لا يكون العالم بلا قلب ... .[١]

إن الأناس الصفوة هم خلاصة وجوهر الكائنات وثمرة شجرة الوجود، والانسان الكامل هو صفوة وخلاصة الكائنات والبشرية. إن الكائنات تخضع بالجملة لإشراف الانسان الكامل، بالصورة والمعنى.

وبما أن الانسان الكامل عرف الله، فانه لن يمتثل لأى طاعة سوى طاعة الله الذى يهب الراحة للخلق ولا يرى هذا الانسان أى راحة أفضل من التحدث إلى الناس ويفعل الشئ الذى إن عرفه الناس، يفعلون الشئ نفسه، ويسلكون طرق الحياة بسهولة ويكونوا فى مأمن من فتن هذا العالم ويفلحوا فى الآخرة، ومن يفعل ذلک فهو وريث الأنبياء.

إن الانسان الكامل لم ير أى طاعة أفضل من أن يقوّم العالم ويجد الصدق بين الخلق ويزيل العادات والتقاليد السيئة من الخلق ويرسى القاعدة

١. الإنسان الكامل، صص ٥ ـ ٨.

والقانون الحسن بين الناس ويدعو الناس إلى الله ويبلغ الناس بعظمة الله وأحديته ... ويجعل الناس يحبون ويشفقون على أحدهم الاخر لكى لايضايقوا ويزعجوا أحدهم الاخر ولا يتوانوا عن بذل الراحة لأحدهم الاخر ويعاونوا أحدهم الاخر ويمنحوا الأمان لأحدهم الاخر باللسان واليد، وبما أنهم رأوا أن من واجبهم منح الأمان لأحدهم الاخر، يبرمون العهد مع أحدهم الاخر.

ولا يجب نكث هذا العهد ومن ينكث عهده، فلا إيمان له.

«مَنْ لاعَهْدَ لهُ لاإيمانَ لَهُ. الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ.»[1]

و بديهي أن الله، يضع نورا أمام الناس من منطلق اللطف والحكمة ومن باب العدل، ويفتح بابا لهم ويظهر طريقا لهم ويحدد مصداقا موضوعيا وخارجيا كأسوة لكي يجد الانسان إمكانية البقاء في أمان من الضلالة ولأجل السير في المراتب الكمالية. ومن هنا، يصبح موضوع السؤال والجواب والعذاب والمكافأة، منشود العقل ومؤيده، وبغير ذلك، فان موضوع المعاد والسؤال والجواب يبقى مهملا من دون تلك المقدمة والتمهيد، في حين أن الساحة القدسية لرب العالمين بريئة من الإهمال والظلم.

ويقول ثامن الحجج الإمام علي‌بن موسى‌الرضا(ع) في تلك الرواية الجميلة والسامية والتي يبيّن فيها الصفات الشاملة للإمام ونقلها العديد من المصادر الروائية للشيعة مع ذكر سلسلة الرواة الموثوق بهم:

---

۱. المصدر السابق.

«وأقام لهم علياً(عليه السلام) عَلماً وإماماً، وما ترک شيئاً تحتاج إليه الأمة إلاّ بيّنه، فمن زعم أن الله لم يكمل دينه فقد ردّ كتاب الله عَزّ وجَلّ، ومَن ردّ كتاب الله تعالى فهو كافر... .»[١]

ومن ثم يقول في وصف قدر وشأن الإمامة:

«هل يعرفون قدْر الإمامة، ومحلها من الأمة فيجوّزون فيها اختيارهم، ان الإمامة أجل قدراً وأعظم شأناً وأعلى مكاناً وأمنع جانباً وأبعد غوراً مِن أن يبلغها الناس بعقولهم، أو ينالوها بآرائهم أو يقيموا إماماً باختيارهم.»[٢]

ومن ثم يتطرق في الفقرة الثالثة وبعد تبيان قدر منصب الإمامة وتبيان صعوبة معرفتها من قبل الناس العاديين، بسبب علو قدرها وعظمة شأنها وعزتها وعمقها، يتطرق إلى تقديم الإمام. الشخص الذي يستحق إحراز هذا المقام السامي فيقول عليه السلام:

«الإمام أمين الله فى أرضه وحجّته على عبادهِ وخليفته فى بلاده، الداعى إلى الله والذاب عن حَرم الله، الإمام المطهر من الذنوب المبرّأ من العيوب، مخصوص بالعلم موسوم بالحلم نظام الدين وعز المسلمين وغيظ المنافقين وبوار الكافرين.»

إن ذكر حضور الإمام بين الخلق وتبيان شأن الإمامة وخصال الإمام ومهمته، هي أربعة موضوعات أساسية ومغفولة أدت إلى إرباك هيكل النظام المعرفي للمسلمين، بحيث أن إحياء هذا النظام اليوم بناء على موضوع ومفهوم الإمامة والولاية، ضروري للخروج من الوضع المتأزم الحالي.

---

١. الكليني، محمّدبن يعقوب، أصول الكافي، ج ١، باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته؛ أصول الكافي، ترجمة كمرئي، ج ٢، ص ١٩٩؛ عيون اخبار الرضا، الشيخ الصدوق، بحار، ج ١، باب ٢٠.
٢. المصدر السابق.

إن إعادة المعرفة الكلية للعالم والقائمة على تعريف ومكانة الإمام المعصوم وحجة الحق، تشكل حاجة ملحة لجيل يعيش في فراغ نظري رهيب وبالتحديد في زمن غلبة النظام النظري الغربي والثقافة والفكر المبنيان على الإلحاد والشرك.

إن علو الشأن هذا وعظمة المقام الذي بيّن حول منصب الإمامة وصاحب هذا المنصب والنسبة التي يجدها الانسان في الساحات المختلفة للحياة معها، تعلن ضرورة ووجوب معرفتها وتحديدها، بحيث نسبت رواية:

«مَن ماتَ ولم يَعرِفْ إمامَ زمانِه ماتَ مِيتةً جاهليّة»[1]

إلى النبي الأكرم(ص) ومن بعده الإمام الحسن العسكري(ع). والملفت هو أن حصول هذه الدرجة من المعرفة تعزوها عامة الروايات إلى لطف الله وعنايته، بحيث يفهم من هذا الدعاء الجميل:

«اللّهُمَّ عَرِّفْنِي حُجَّتَکَ فَإِنّکَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَکَ ضَلَلْتُ عَنْ دِينِي»

بان علو الشأن جعل من الصعوبة بمكان حصول هذه المعرفة. فضلا عن أن هذه المعرفة تؤشر على الإهتداء.

«مَنْ عَرَفَنَا فَقَدْ عَرَفَ اللّهَ»[2]

أي أنه بمجرد حصول المعرفة، تتحصل الهداية أيضا.

إن الهداية هي رزق مبارك يجب أن تأتي من جانب الله تعالى. «وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».[3]

---

۱. بحارالأنوار، ج ۵۱، ص ۱۶۰ و ج ۶۵، ص ۳۳۹؛ إعلام الورى، ص ۴۴۲.
۲. بحارالأنوار، ج ۲۶، ص ۳۴۲. كما نقلت روايات أخرى في هذا السياق عن المعصومين(ع): فمن عرفناه وعرفنا دخل الجنة (بحارالأنوار، ج ۲۴، ص ۲۵۱). من عرفنا فامامه اليقين (بحارالأنوار، ج ۲۴، ص ۱۱۴).
۳. سورة يونس (۱۰)، الآية ۲۵.

إن هذا الكلام يذكّر الإنسان إلى أنه غير مستغن عن الحجة في أي أمر. وحتى معرفة الحجة، مثلما ورد في الرواية المنسوبة إلى الإمام الرضا(ع).

إن التوسل والرجوع إلى الساحة القدسية للحج الإلهيين في كافة الأمور، ضروري للهداية وضروري للسير وضروري للوصول إلى مراتب الكمال العالية.

إن التعبير الذي استخدمه السيد نسفي عن الانسان الكامل هو تعبير جميل إذ يقول:

إن جميع الكائنات هى كشخص واحد وانسان كامل وانسان محدد والكائنات الفاقدة للقلب لا تستطيع الوجود.

إن جميع الأعضاء والجوارح مرتبطة بالقلب وتتوقف حياتها عليه، فكيف يمكن للأعضاء المنفصلة عن القلب وبدونه، ممارسة الإشراف على القلب ومعرفته؟

إن معرفة عامة الناس وحتى الكثير من أهل العلم وكل من يتحدث عن الإمام وشأن الإمام، هو بمثابة حوار اليد والساق المنفصلتين عن القلب، عن القلب.

إن البشرية اليوم لاسيما المسلمين قد اصيبوا بمرض عضال، وما المرض الأصعب من إستغناء الأعضاء عن القلب؟

لقد اعتبرنا دائما النفس المستبدة والعقل الوهمي المنفصل عن عقل الهداية والوحي، معيارا للوجود والوصول. وهذا ينطوي على مستوى كبير من الإنبهار بالغرب. ولذلك فاننا لن ننجو بجلدتنا. وهذا يمثل نسبة كبيرة من الإنبهار بالغرب. إن المسلمين بمن فيهم الشيعة يعتبرون أنهم أحرارا وطلقاء، رغم أنهم ينكرون هذا الوضع دائما. وعندما لا يتحول الإنطباع الوحياني والكامل لائمة الدين(ع) إلى أساس للنظر والعمل، فان الإهتمام سينصب ويقتصر على إقامة مراسم تكريم و

مجالس حداد وعزاء وتبيان النقاط التاريخية والأخلاقية حول سيرتهم وسنتهم، و يتحول جزء فحسب من الأحكام الفردية (بشكل عام حلية وحرمة الأكل والنوم و الزواج) إلى معيار للتعامل اليومي بين المسلمين، وحينها هل يبقى مكان لمساهمتهم التامة والكاملة في الحياة الفردية والإجتماعية وفي عامة العلاقات والمناسبات؟

والملفت أن معرفة المسلمين بالحجج الإلهيين لا تزيد عن معرفة أعداء آل الله بهم.

إن الموضوعات والمعلومات الخاصة السائدة في أعمال وحوارات العلماء الخاصين، لها حكم الإستثناء في مقابل القاعدة. إن سر تبيان شرط الدخول إلى حصن «لاإلـه الاالله» من جانب الإمام علي‌بن موسى‌الرضا(ع) أمام أهالي «نيشابور» يكمن في هذه النقطة.

و طالما لا يجد المسلمون سبيل وباب الهداية ولا يتحصلون معنى ومفهوم العبودية وحقيقة الإيمان، فانهم لن ينالوا نصيبا من الهداية والفلاح، وسيصابون في خضم عاصفة الضلال والإبتلاءات بالحوادث التالية:

١. العصيان والتمرد على حكم الحق؛

٢. تغيير وتبديل الأوامر والنواهي؛

٣. الإنغماس في بحر الشبهات؛

٤. إختلاط الحق بالباطل والحرام بالحلال في العلاقات الفردية والجماعية؛

٥. التعطيل التام لأحكام وأوامر الله؛

٦. إيجاد الشبهة في حق محمّد وآل محمّد(ص) وغصب مقامهم.

إن أيا من هذه الحوادث نسبة إلى أعمال المسلمين وأخلاقهم ومعتقداتهم الفردية والجماعية، يجعلهم حسب السنة التي لا تبديل فيها، معرضين لأنواع الآفات

والبلاءات مثل المرض والنقص في الأموال والكوارث الطبيعية في الدنيا والعقوبة والعذاب في الاخرة.

وفي دعاء «كميل» المستند قطعيا إلى قول الإمام علي أمير المؤمنين(ع)، فان المؤمن يتوسل بتفجع وندبة إلى الله ليغفر له الذنوب التي تنزل البلاء، بحيث ورد في هذا الدعاء:

«اَللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الّتی تُغَيِّرُ النِّعَمَ، اَللّهُمَّ اغْفِرْ لی الذُّنُوبَ الّتی تَحْبِسُ الدُّعاءَ، اَللّهُمَّ اغْفِرْ لِی الذُّنُوبَ الّتی تُنْزِلُ الْبَلاءَ»[١]

وحسب السنن الثابتة التي لا يسع المجال هنا للتفصيل فيها، فان بعض الذنوب تؤدي إلى إنسداد أبواب السماء وحبس الدعاء، والبعض منها يؤدي إلى نزول البلاء والبعض منها يغير النعم. ويجب التساؤل، أنه في هكذا وضع، هل يمكن الإستناد إلى الظن والمبادئ غير الحقيقية للعلوم الرائجة والأراء النابعة من الأهواء والغرائز، سلوك الطريق والحصول على النجاة؟

وفي ضوء هذه المخاطر، فان الإمام الرضا(ع) يرى أن نيل الحقيقة والتخلص من نار القهر والغضب، مشروط بالرجوع التام إلى الولاية التامة لحجة الله.

وهذا الرجوع، لا يتحقق في إبداء الميل والصداقة فقط. إن اصلاح الأمور وتنظيم العلاقات الفردية والجماعية بطريقة تتضمن بروز الحقائق وسريان زلال الهداية، لاعلاقة مباشرة له بالمحبة وإبداء المحبة، رغم أن هذه المحبة وإبدائها أي الوَلاية، تعد مقدمة لقبول وِلاية ووصاية هؤلاء العظام. إن الوَلاية وإبداء المحبة، تدخل أهلها في ميدان الوليّ ونطاق لطفه وتؤدي إلى قضاء بعض الحوائج والنقائص

١. فقرات من دعاء كميل، عن مفاتيح الجنان.

(مثل شفاء الأمراض ورفع الهموم)، لكنها لا توفر بمفردها إمكانية ظهور وِلاية هؤلاء الأولياء وتطبيقها في جميع الساحات.

إن هذه الطريقة من التعامل وحتى عدم الرجوع، لا تبعد الولي عن منصب الوِلاية. إن رجوع الناس أو عدم رجوعهم، لا يجد نسبة مع شأن الولي الذي يتصف بمجموعة الصفات المتعالية، لكنه يقيد نطاق عمله وحضوره. إن هذا الرجوع الحقير، يجعل في الحقيقة الولي يقدم الخدمة لا أن نقدم له الخدمة.

إن المسلمين يجعلون الأولياء في خدمتهم ويقيدون دائرة إعمال وِلايتهم. إن هؤلاء ومن دون أن يدروا يجعلون وِلايتهم جارية في جميع العلاقات، وينظرون في الحالات النادرة وفي الإضطرار إلى إعمال وِلاية أولياء الله. والشرط الذي يشير إليه الإمام الرضا(ع) هو ضروري للإيمان والعبودية وقبول الأعمال، وشرط أن نكون من تخاطبهم الآية الكريمة «ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً».[1]

بعبارة أخرى، فان جميع أوامر ونواهي الحق تصل إلى العباد عبر محراب باب الله وصراط الله.

«اَلسَّلامُ عَلى مُظْهِرِى اَمْرِ اللّهِ وَنَهْيِهِ»[2]

ولذلك فان أهل الولاية، يعتبرون الولي ميزانا لقبول الأعمال، بحيث ورد في بعض الأدعية:

«أَشْهَدُ أَنّ بِوِلايَتِكَ تُقْبَلُ الأعْمالُ، وَتُزَكّى الأفْعالُ، وَتُضاعَفُ الحَسَناتُ، وَتُمْحى السَيِّئاتُ»[3]

---

۱. سورة الفجر (۸۹)، الآية ۲۸.
۲. مفاتيح الجنان، الزيارة الجامعة الكبيرة.
۳. المصدر السابق.

إن كتب الأدعية واستنادا إلى الروايات المنقولة عن الرسول الأكرم(ص) وائمة الدين(ع) مليئة بهذه الخطابات.

وعندما يصبح رجال في الظاهر والباطن وفي الصورة والسيرة، المظهر التام لصفات الأسماء الكمالية، ويجسدون حقيقة الوجود بوصفهم المظهر التام والموضوعي للعبودية، يتحولون تكوينا إلى ميزان للأعمال الظاهرية والباطنية لسائر العباد الذين منزلتهم أدنى من هؤلاء الكرام وبوصفهم خليفة الله ويكون حكمهم حول العباد هو حكم الحق بعينه. فلطفهم هو لطف الحق وقهرهم هو قهر حضرة الحق بعينه.

وفي مقام التشريع، فقد ذكّر الله عن طريق كلام الوحي بشأن هؤلاء وذكّر من خلال إرادته التامة بتمامية عصمتهم وتطهيرهم من أي رجس في الظاهر والباطن. لذلك فان إحياء النظام المعرفي المبني على ولاية المعصوم، قائم على تفضيل وليّ الحق بوصفه قطب العالم ودائر مدار الوجود، باذن الله تعالى، بحيث أن سائر المدارج والمراتب الملكية والملكوتية تجد معناها نسبة إليهم، في حين أن المسلمين يبحثون اليوم عن الإنتقائية وامتزاج العلوم الجديدة التي هي كلها مبنية على الفكر القائم على المذهب الإنساني وينظرون إلى المعارف الدينية لجميع الكائنات في عرض أحدها الاخر ويغفلون عن الترتيب الطولي لنظام الخلقة.

إن السؤال من الله والانسان والعالم في المنظومة الفكرية والنظرية الغربية و إعادة السؤال عن مبادئها واسسها بالإتكاء إلى المبادئ الدينية النابعة عن كلام الوحي وقول وفعل الحجج الإلهيين من أهل بيت النبي الأكرم(ص) والمطهرين من

أي إنتقائية وامتزاج بالشوائب الميتافيزيقية والعلمية الغربية قبل وبعد عصر النهضة، مقدمة لإحياء النظام المعرفي المبني على ولاية الانسان الكامل.

إن النظام المعرفي القائم على وِلاية الانسان الكامل، يشير إلى بناء العالم الديني المغفول والمهجور في وقت غلبة العالم الغربي وثقافته وحضارته الطاغوتية.

إن جوهر وباطن هذا النظام قائم على الوِلاية، وهو باعتباره باطن الوجود وقطب عالم الإمكان يؤدي إلى دوام وقرار عالم الملك والملكوت باذن الله. وكما يستشف من الآية الكريمة «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً» فان خليفة الله هو سر الخلقة وواسطة عالم الغيب والشهود ومُضفي المعنى ومُنظم العلاقة بين الانسان والطبيعة ومبدأ الكون. وفي مثلث «الله، الطبيعة (عالم الكون) والانسان».

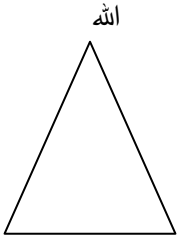

فان خليفة الله، يجعل من الممكن التواصل بين هذه الثلاثة.

وربما أي نقطة على امتداد الحياة وخلقة العوالم، ليست أهم من نقطة جريان الانسان في التاريخ، منعطف خروج الانسان من الإجمال إلى التفصيل و نقطة الحضور في مجال الطبيعة.

إن مواقع ضعف الكثير من المدارس تكمن في هذا الموضوع. وبعض هذه المدارس يغفل الوجه المعنوي والإعتبار الإلهي للعالم والانسان ويقدم الانسان على أنه

كائن أحادي الساحة، مولع بالدنيا أو أنه ينشغل بقضايا الميتافيزيقيا لدرجة أنه يغفل التاريخ والسير في العالم الترابي وضرورة الحضور وحياة الانسان في الأرض.

والمجموعة الثالثة، هي مدارس تركز على الساحتين الملكية والملكوتية لعالم الانسان، لكن وبسبب الغفلة عن الانسان الكامل والوسيط والرابط بين هذين العالمين، فانه لا يجد إمكانية جريان الإنطباعات النابعة عن الدين في التاريخ.

ومن هذه المجموعة الثالثة، ثمة جماعة تلجأ إلى الحياة المزدوجة. ففي الخلوة والدعاء والإبتهال وبعض المراسم والآداب الدينية، تتوسل إلى التقاليد الدينية، وفي الظاهر (مجال التاريخ) تعول على الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية و... المنبثقة عن المدارس الإلحادية وغير الدينية. إن هذه الجماعة تجعل نفسها وأنصارها معلقة بين الأرض والسماء مع آخرة ودنيا خربة وناقصة وتواجه أزمات مختلفة تجعل علاقاتها الفردية والجماعية تمر بمشاكل. إن هذه الأزمة، هي الحصيلة الطبيعية للحياة الإزدواجية.

إن ظهور وحضور تمامية الدين وترابطه مع الحياة، رهن بخلفية الله، بعبارة أخرى، فانه ضروري لهذا الترابط، وجزء لا يتجزأ منه وسنته الثابتة، بحيث نقل عن ائمة الدين(ع) حول دور وأثر هذا العنصر المهم في الكون:

«**لِوْلا الحُجَّة ، لَساخَت الأرْضِ بأهلِها**».

إن هذا المعنى لا يقتصر على رجوع الناس إلى حجة الله. إن حضوره في الأرض ضروري لديمومة حياة الأرض والكون، ودرك الحياة الطيبة وأن تجربتها التامة ضرورية كذلك للرجوع والتوسل والتمسك به وإعمال مطالبهم في جميع العلاقات الفردية والجماعية.

ويكمن سر غيبة الإمام المعصوم(ع) في هذه النقطة. وحسب تعبير النبي الأكرم(ص) فان الإمام وحجة الحق، هو كالشمس الغائبة خلف السحاب.

إنه غائب عن أنظار الناس بسبب غفلة الناس ونكرانهم للجميل وحسب التكليف، وهو يضطلع بدوره التقليدي بوصفه الخليفة وسبب استمرار وبقاء الأرض باذن الله، لكن الانسان ورغم أن وجوده رهن به، يسير بغفلة في الأرض ويواصل حياته المتأزمة والمليئة بالصراعات. والنتيجة الطبيعية لهذا السير والسفر، هي الظهور التدريجي والمتزايد طبعا للأزمات والإضطرابات إلى أن يتوقف هذا السير على اثر واحد من هذين الحدثين.

١. بروز شعور بالتعطش والحاجة الملحة لدرك حضور حجة الله بين الناس وطلبهم الجاد والإستجابة له من قبل حضرة الحق والذي يطلق عليه الإنتظار الإيجابي؛

٢. وصول العالم وشعوب العالم إلى أعلى نقطة من التأزم والتي تؤدي بالنهاية إلى الإنهيار الكبير والظهور الأعظم لحضرة ولي الله الأعظم(ع).

إن الحدث الثاني، هو أكثر الأحداث إيلاما وصعوبة، وإن وقع فان الانسان سيكون مرغما على دفع أثمان كل جحوده، لكن الأول هو حصيلة لطف حضرة الباري وانعكاس الإنابة والعودة إلى المذهب الحقيقي والأصيل. وفي الأدب والأدبيات الدينية يطلق على الواقعة الأولى وكيفية حضور الانسان فيها، اسم الإنتظار وعصر الإنتظار. العصر الذي يتصل بعصر الظهور.

وتقع الإنابة والعودة في ساحتين. الساحة الأولى مقترنة بمراجعة النظام النظري الغربي وبناء نظام معرفي جديد مبني على ولاية الانسان الكامل أي خليفة الله والذي

يؤدي إلى ابرام العهد الصادق والإلتزام القلبي به، والساحة الثانية هي مراجعة النظام المدني وكيفية الوجود في التاريخ والوضع الاجتماعي، وهو مبني أيضا على النظام المعرفي الجديد.

إن إعادة تأهيل الساحة الأولى رهن بالحوار الجاد من مدخل الموضوع أي مقام خليفة الله وشأنه ومن دون أن يبطل أو يعلق النظام النظري - الشئ الذي نعتبره جوهر الثقافة المهدوية - أما إعادة تأهيل الساحة الثانية، أي الحضور التاريخي في الأرض، رهن بمدخل خاص. الشئ الذي نطلق عليه اسم ركن تلك الثقافة نسبة إلى الحياة التاريخية للانسان.

ويقول الشهيد السيد محمّد باقر الصدر في كتابه «السنن التاريخية في القرآن» ذيل الآية المباركة «إِنّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ»[1] ما مضمونه، إن الله يغير مصير قوم شريطة أن يغيروا هم ما بانفسهم. وهنا التغيير نسب إلى القوم أنفسهم، أي أنه يرتبط بعملهم. وعليهم أن يريدوا ويوجدا ذلك.

إن تغيير الأوضاع والشؤون الإجتماعية والمادية لأي قوم يعد البنى الفوقانية لهؤلاء القوم. إن التغيير الجوهري هو التغيير الذي ينشأ من داخل القوم أنفسهم وأي تغيير اخر، ينبع من هذا التغيير الأساسي. وبديهي أن المقصود من تغيير «ما بانفسهم» هو التغيير في باطن الشعوب والأمم. بحيث أن المحتوى الباطني للمجتمع بوصفه شعبا وقوما، يتغير ويصبح كالربيع الذي يثمر دائما فاكهة جديدة ومختلفة من فاكهته السابقة، وإلا فان تغير فرد أو فردين أو ثلاثة أفراد من أفراد المجتمع

١. سورة الرعد (١٣)، الآية ١١.

والشعب، لا يمكن أن يفرز تغيرا لدى مجتمع وقوم... ويتطرق القرآن إلى الفصل بين البناء الخارجي عن البناء الباطني ويقول:

«وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُکَ قَوْلُهُ فِی الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِی قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِی الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِکَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَاد.»[1]

وتريد هذه الآية القول بان الانسان عندما لا يستسيغ ويحبذ التغيير، ولا يؤثر ذلك في أعماق روحه ولا يبني نفسه من الداخل، لن يستطيع أبدا اعتماد الكلام الحق، وطالما أن الكلمات الحق لا تنبع من قلب ينبض بالقيم الانسانية التي هي محتوى الكلام الحق، فان تحولا لن يطرأ أبدا على بناء المجتمع الصالح. وبغير ذلك، فان الكلام الحق سيكون ألفاظا فارغة وفاقدة للمعنى وعديمة المحتوى.[2]

إن الذين لا يقدرون على درك ضرورة التنسيق والتناغم بين النظام النظري والحياة التاريخية وكيفية الوجود، أو أنهم لا يرون من المصلحة مواكبة هاتين الساحتين من الحياة، فانهم وقبل أن يهتموا بشكل جاد باصلاح وإعادة تأهيل النظام النظري السائد الذي هو حصيلة هيمنة الطغاة أو غفلة العلماء يهتمون بتقوية البناء المدني الجاري والموجود في علاقات الناس الذي هو حصيلة الإنحراف والإنتقائية وحتى إنكار الحق. و يقول الشهيد السيد محمّدباقر الصدر في هذا الخصوص:

لقد كانت مصلحة الطغاة على امتداد التاريخ هو إغلاق أعين الناس على الواقع وأن ينظروا إلى الحياة التافهة التى كان يعيشها الناس فى تلک الفترة على أنها مثالية واعتبارها قيمة مطلقة وإيصال الوضع القائم إلى

---

۱. سورة البقرة (۲)، الآيتان ۲۰۴ - ۲۰۵.
۲. السنن التاريخية في القرآن.

الوضع المثالى الذى لا يمكن التغاضى عنه. إن هؤلاء يحاولون حبس الناس فى إطارهم الفكرى الذى يريدونه هم ويقولون أن الشعب يجب أن ينقل الوضع القائم إلى الوضع المثالى وأن يختاروا شيئا مثاليا اخر وألا تحدث أمنية أفضل فى أفكاره. وهذا هو السبب الاجتماعى لاختيار المثاليات التافهة.[١]

ولذلك فان جماعة ترى أن السير في الثقافة والحضارة الأجنبية (من الحق) هو أمر لابد منه ولا يمكن إنكاره. وجماعة أخرى ترى من منطلق الجحود، ان تكاسله أو الإنخداع به يعد من مصاديق ومظاهر التقليد المنشودة للأنبياء وأولياء الدين ويسعى لاكتساب تجربة مراتبه ويحفز الناس على تكريمه. ويقول الشهيد الصدر: إن على الشعب نقل القالب والوضع القائم [الثقافة والحضارة الأجنبية] إلى الوضع المستقبلي [مجتمع المنتظرين].

وقد أشرنا سلفا بان خلال جميع سنوات القرن العشرين وما بعده، رأى المسلمون أن مستقبلهم يكمن في الحداثة وما يسمى التنمية الغربية وجعلوا من ذلك إماما لهم.

وفي هكذا وضع، فان الأمم التي تعتقد بأن الوصول إلى الحداثة التي تتطابق مع النموذج الغربي هو الشئ الذي تنشده، فانها تزرع بزرة نبات يؤتي ثمرة مرة. إن حصيلة هذا العمل ومصيره، لن يكون سوى الحالات التالية:

١. الإستحالة في الثقافة والحضارة الأجنبية؛

٢. الإنفعال والتشرذم الناتج عن غياب التطلع الحقيقي (المتناغم مع الفطرة)؛

٣. هيمنة الأجانب على المقدورات والمقدرات.

---

١. المصدر السابق.

وهذا هو الشئ الذي يعتبره الغرب الإستعماري أفضل خيار لديمومة سلطته على البلدان الاسلامية ومواجهة المعارف والثقافة الولائية. إن كلام الوحي وتعاليم النبي الأكرم(ص) والائمة المعصومين(ع) تدعونا لاعتماد أسلوب شريف ومزين بطابع الجهاد ومنزه عن أي ذل وهوان. و لايجب تجاهل أن:

إن الانسان الغربى يمثل المظهر الخارجى للفكر والثقافة الغربية، كما أن الحضارة الغربية تمثل المظهر الخارجى والمادى لهذا الانسان.

إن حضرة الحق جل وعلى يتجلى في الوجود المبارك لحضرة ولي العصر(ع). كمظهر خارجي للحق في سيماء الانسان الكامل. إننا لابد أن ننتهج الصبر حتى ظهور هذا الانسان والإتصاف بصفاته على هيئة الثقافة والحضارة الاسلامية. لكن من الواضح والجلي ان مظهر الانسان الغربي أي الثقافة والحضارة الغربية لايمكن أن تكون مظهرا للانسان الكامل. لذلك فان الحضارة المستقبلية هي مرآة سيماء الانسان الكامل وخليفة الله لا مرآة الانسان الغربي الطاغي والمتمرد.

إن شرف شيعة علي وآل علي(ع) يتجسد في التبعية التامة لحجةالله و خليفته و وليه بالحق وهو الذي يحمل كل الكبرياء والعزة والشرف. إن الجهاد هو خلعة جميلة يرتدونها هؤلاء لكي تبقى الراية الخضراء والجميلة للتعاهد مع ولي‌الله الأعظم(ع) خفاقة عالية على الدوام وألا يحط غبار التذلل والخضوع للطغاة والعصاة والمنكرين المستبدين على وجه حياة المسلمين، وفي هذه الحالة يمكن الجلوس بوجه متورد أمام حضرة الحق وعلى عتبة المصطفين من بيت الوحي والوصول في ساحتهم الجميلة إلى السكينة والحياة الأبدية.

اللهم اجعلنى من أنصاره وأعوانه!

إن شاء الله